العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 54

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 1 فبراير 2024

الموافق 20 من رجب 1445

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

مُذكِّرات

لم أكد أضع الكلمة الأولى في افتتاحية هذا العدد ، حتى اسْتعدتُ يدي أشدَّ بياضا من الورقة البيضاء ، لا لشيء إلا لأنَّ خاطراً لسعني وأوحى لي أن أتركهم يأخذون حصَّتهم من كتابة الافتتاحية ، إنَّهم/ هن الرائدات والرواد الذين سبقونا إلى هذا الطريق بينما كنا لا نزال في أول الطريق ، رائدات ورواد الإعلام الثقافي الذين زادهم الاشتغال بالأدب وزنا يُقاس بميزان الذهب ، أولئك الذين أفنوا حياتهم في الكتابة ، لا يجب أن يكون الجزاء نظير ما أسْدوه للثقافة المغربية التشطيب والإلغاء ، بل الأجدر أن نسْتحضر بين حين وآخر ذكراهم ونُرسِّخها بقوة الفعل ،ليس فقط بالاقتصار على رفع الأكف بالضراعات والدعاء ، ولكن بإعادة نشر أعمالهم التي قد لا نجد اليوم ، مثيلا لأسلوب كتابتها البليغ وقوتها في إبداء الرأي ، عسى أنْ لا نُقلق راحتهم الأبدية ، ويقبلوا العودة للعيش بيننا للحظات بعد أن ذاقوا نعمة الخلود في دار البقاء !

محمد بشكار

bachkar_mohamed@yahoo.fr

الثقافة ثورة وأخلاق وليست استبداداً بالرأي !

كتبها: الدكتور عباس الجراري

حين أصدرت كتابي عن "الثقافة في معركة التغيير" عام اثنين وسبعين من القرن الماضي، وقبل ذلك في سنة ثلاث وستين حين نشرت في مجلة «دعوة الحق» مقالا عن «حاجتنا إلى ثورة ثقافية»، والمغرب إذ ذاك حديث العهد بالاستقلال، كانت الثقافة ما تزال محدودة ومؤسساتها معدودة، ومبدعوها والقائمون عليها، على قلتهم، ما بين منتشين بهذا الاستقلال، ومتحفزين إلى بنائه على اختلاف مشاربهم وتطلعاتهم، تجتذبهم رياح شتى تغلب عليها بعض إيديولوجيات المرحلة وافدة من الشرق والغرب.

يومئذ أثيرت قضايا تأسيسية، كضرورة قيام ثقافة وطنية، والموقف من القديم والتقاليد والتراث في مقابل المعاصرة. وكان ممكناً أن يتم الحسم في كل هذه القضايا وما إليها مما كانت تتناوله الأقلام وإن من زوايا مختلفة، إلا أن ذلك لم يتحقق على النحو المأمول لأسباب موضوعية ومفتعلة، بدليل أن تلك القضايا نفسها ما زالت لحد الآن معروضة للنقاش، مع اتساع إطار هذا النقاش وما يعتمل فيه من تعقيدات لا تزيد إلا تراكما، على الرغم من التطور الكبير الذي تعرفه الثقافة، سواء من حيث مؤسساتها أو أطرها الفاعلة بما لم يتقدم من قبل. وهذا ما جعل "الرهان" الذي تحدثتَ عنه في سؤالك ما يزال قائماً بأكثر مما كان من متطلبات وتطلعات وبمعاناة أشد من ذي قبل، نتيجة ما ذكرت من تهميش موضوعي وتشرذم وانقسام ذاتي، وكذا نتيجة الصراعات الظاهرة والخفية والحيرة أو الاضطراب في مواجهة التحديات المحلية والإقليمية والعالمية الآنية، إن لم أقل العجز عن هذه المواجهة أو التشكيك في القدرة عليها.

ومن ثم فإني وإن كنت غير متفق معك على أننا لم نعد بحاجة إلى «ثورة ثقافية»، فإني أوافقك على الحاجة إلى «ثورة أخلاقية». وذلك لأمرين اثنين:

أولهما: أننا لم نحل مشكلات الثورة الثقافية التي تتضخم يوما إثر يوم.

وثانيهما: أني أعتبر الجانب الخلقي جزءاً مكوناً للثقافة، وأن الحديث عن «الثورة الثقافية» قبل أزيد من أربعة عقود، كان يتضمن ما تراه من «ثورة أخلاقية»، مع ملاحظة تطور الظروف وما تبدي من اختلال في منظومة القيم، ليس بالنسبة للمغرب فحسب، ولكن كذلك في المجتمعات العربية والإسلامية وحتى العالمية.

إن الهدف من تثوير الثقافة ليس أن تصبح لها سيطرة تستبد فيها بالرأي والقول والفعل وتمنع سواها أو تهمشه وتقصيه وتلغيه، ولكن الهدف هو تحريك العناصر القوية والمقومات الحية في هذه الثقافة، لتنهض بالدور المنوط بها في التوجيه والتقويم، بتوازن واعتدال وتسامح وعقلانية، ولتؤدي بذلك رسالتها العلمية والمجتمعية التي توافرت لها اليوم جميع الشروط والظروف. وهي رسالة ريادية تنطلق من الابتعاد عن الأنانية والفردية، ومن الاندماج في المجتمع وعدم الانعزال عنه أو التعالي عليه أو التحكم فيه، وتعمل على تحديثه وتنوير فكره وتوعية قادته وجماهيره بقيم الحرية والعدل والمساواة، باعتبارها «حقوقا» ضرورية، ولكن كذلك بقيم العمل والإنتاج بجد وإخلاص، مما تشمله «الواجبات» التي غالباً ما تغيب في سياق الحديث عن «حقوق الإنسان». وهو ما لا يمكن أن تقوم به غير الثقافة مهما تكن لذلك المجتمع من مؤسسات مسؤولة فيه.

وهذا يعني أن نؤسس ثقافة قادرة على التعامل مع الواقع وتحليله وفهمه ونقده، وقادرة كذلك على فتح آفاق الإبداع والاجتهاد، وكذا مجالات الحوار مع الذات والآخر، على أساس القبول والاعتراف والاحترام والتبادل والتعاون والتضامن. وذلكم ما يستوجب وضع «إستراتيجية ثقافية» مثلما يتم وضع إستراتيجيات للسياسة والاقتصاد وغيرهما مما يرتبط بمخططات الشأن العام، في حرص على الوحدة التي لا تعني أن تكون ثقافتنا مطبوعة بسمة واحدة تجعلها ذات وجه بملامح متماثلة، ولكن تعني أن تكون هذه الثقافة وطنية: أي قادرة على التشكل من كل الأنماط الثقافية التي يزخر بها مجتمع كمجتمعنا يتسم بالتنوع والتعدد، والتي من شأنها حين تتفاعل أن تغني تلكم الثقافة الوطنية: أي أن تمنحها البعد الوطني.

على أن هذه القدرة الثقافية ينبغي كذلك أن تتبلور في الالتئام مع الثقافات المختلفة عربية وإسلامية وعالمية، ولاسيما هاته، مع إمكان التمييز بين ما هو صالح منها وما هو غير صالح، برفض النماذج غير الملائمة لنا منها. كما ينبغي لتلك القدرة أن تتجسم في إثارة القضايا الشائكة والمشكلات العويصة في غير تحرج من تناولها، ولكن مع الاجتهاد في إيجاد حل لها.

وبهذا تخرج الثقافة من جمودها وتقليديتها وعزلتها، ومن خشيتها كذلك على نفسها أن تهيمن عليها المؤسسات والتنظيمات الرسمية. وإذا ما تسنى لها ذلك، أمكنها استجماع قدراتها وعناصر القوة الكامنة فيها، ومكوناتها المادية والفكرية والبشرية التي تستطيع بها أن تتوسل بالتحليل العلمي والتخطيط المستقبلي، وأن تصد المحاولات التي تسعى إلى إجهاض العمل الثقافي ومحاربة الإصلاح والتغيير، أو التي تسعى إلى تسخير هذا العمل لمصالحها واستعباد الناهضين به، سواء أكانت هذه المحاولات داخلية أم خارجية، مما يشكل جانباً من التحديات التي تواجهها الثقافة، أو عليها أن تواجهها وهي عديدة.

وهكذا، فإذا كانت القيم التي اعتدنا أن نتحدث عنها ونطالب بها الثقافة والمثقفين هي ما يتصل على الخصوص بالعقل والحرية، فإن الحاجة اليوم ماسة كذلك إلى قيم أخرى تجمعها المكارم والأخلاق، من نزاهة وصدق وأمانة ووفاء والتزام وضمير حي وحرص على بقاء شعلة الأمل والتفاؤل ملتهبة في النفوس.

من حوار منشور بموقع الرابطة المحمدية للعلماء بتاريخ 6 دجنبر 2011

مع هذا العدد خاص حول رحيل الأديب الدكتور عباس الجراري

- **الدكتور مصطفى الشليح : قصيدة**
- **الدكتور محمد احميدة : دراسة**
- **الدكتور فريد أمعضشو : دراسة**
- **الأستاذ المصطفى كليتي : شهادة**

سعيد بنسعيد العلوي

مجهول الحال

لا يفتأ الروائي والمفكر المغرب يتحفنا بمتعة السفر التخييلي في مسالك السرد، وقد تفتقت قريحته أخيرا برواية جديدة آثر أن يسميها «مجهول الحال»، رأت النور عن دار المركز الثقافي للكتاب بالدار البيضاء/ بيروت.

تسترجع هذه الرواية إلى وضح الذاكرة «لحظات الاحتدام الإيديولوجي والسياسي في مغرب سبعينيات القرن الماضي»، ومنها انتفاضة «مولاي بوعزة» المسلحة الفاشلة بالمغرب العميق في «سنوات الرصاص».

ويقول سعيد بنسعيد العلوي إن «جوّ الرواية قُبيل الكوفيد، لمّا سيعود إنسان بعد اغتراب أربعة عقود في فرنسا، أعقب رحيله سنة 1973 إثر الثورة المسلحة الفاشلة بمولاي بوعزة.

وفي الرواية انتقال بين الحاضر وذلك الإبّان».

ويضيف الكاتب:»السارد ارتأى أن يسلك أسلوبين، الأول أن الشخصية الرئيسية ليس لها اسم في الرواية؛ مثقف، تشير إليه الشخصيات الأخرى التي تتقاطع معه بما يدل عليه. والأسلوب الثاني أن السارد يمسك بكناشة، سجل، يعود فيه إلى النص الروائي الكبير (دون كيشوتُ) لسرفانتس، برمزيته المعروفة من محاربة طواحين الهواء، والعبث».

وأضاف سعيد بنسعيد العلوي: «الشخصية الثانية هي سليمان الهبطي، المسؤول السابق في البوليس السياسي وعميد الشرطة، الذي اختطف مجهول الحال، وبطريقة فانتاستيكية سيفلت هذا الأخير من يد زبانيته ويختفي، وهو ما يوقع العميد في مشكل، ليصاهر بعد ذلك الجنرال الذي من منطقة سيدي قاسم والغرب، وهو ما يوقعه في استغلال وتملك، لينتهي مريضا مقعدا يتذكر الهزائم».

أما باقي الشخصيات فـ»مثقف اسمه محمد رضا الهواري منتم للحزب الاشتراكي ومناضل في المنظمة الطلابية في الكلية وملتزم بالحزب، وحامد بن علي المنتمي أيضا إلى الحزب الاشتراكي، لكنه سينتسب إلى تنظيم مواز سينشق عن الحزب الاشتراكي، يديره (زعيم) من خارج المغرب هو العقل المدبر للثورة المسلحة، وسينكشف في نهاية الأمر لعبه مع الجنرال الذي من جهة الغرب».

هذا الانكشاف سيصيب «الشخصيتين المناضلتين بخيبة وصدمة كبيرة، بسبب التقابل بين الصفاء الثوري والخيانة».

أما الشخصية الأخيرة فـ»لا تظهر، لكن يُتحدَّث عنها؛ الأنثى في الرواية، ثريا الهبطي، رمزُ عميد الشرطة يتعلق بها، وكذلك باقي الشخصيات، لكنها لا تتعلق إلا بمجهول الحال».

وفي عود بدئي عن جدل الفلسفة والرواية اللذين روضهما الكاتب باقتدار، يقول الأديب المفكر سعيد بنسعيد العلوي: «دخلت الكلية وعمري دون الثامنة عشرة، يكون الإنسانُ مليئا بأحلام المراهقة والشباب، وكان لجيلنا ذوقه، وهو أساسا الموسيقى الكلاسيكية، والموسيقى العربية والمغربية، وكانت لنا رموز هي مثلا نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، وإرنست همنغواي، وفولكنر، وبالزاك. كان وعيي ممتلئا بهذا. أضف إلى ذلك أني حصلت على الإجازة في يونيو 1968، فكنا نعيش أحداث ثورة الطلاب بفرنسا يوميا ونتأثر بها، وسنة 1967 كانت لا تزال قوية حاضرة في أنفسنا؛ فكانت الأمور مختلطة في ذاكرتنا؛ وعي عربي، ووطنية مغربية ونوع من الماركسية، ووجودية سارتر وكامي».

وأردف الكاتب: «لي هوى شخصي جدا، منذ كنت صغيرا، هو هوى القصة القصيرة التي بدأت بها لا بالشعر، ثم هوى الرواية. لكن بقيت صامتا لمدة لا أدري لماذا؟ خجل أم تردّد.

وظلت الأمور تعتمل لعقود طويلة، دون أن يخلو الأمر من خربشات ورسم شخصيات ومواقف، حتى شاء الله عقب خروجي سليما من تجربة مرض مريرة، وجدت نفسي قد بدأت تحرير (مسك الليل) سنة 2010، ثم ابتدأت الحكاية، فأعقبتها (الخديعة)، وفي مرحلة أخرى (ثورة المريدين)، و(سبع ليال وثمانية أيام)، و(حبس قارة) ، فآخر العنقود: (مجهول الحال) الرواية الصادرة في سنة 2024».

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن الأكاديمي سعيد بنسعيد العلوي، معروف بزخمه الفكري التنويري، نذكر من دراساته هذه العناوين:

-دولة الخلافة: دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط 1980.

-الفقه والسياسة، بيروت/ دار الحداثة، 1982.

-الإيديولوجيا والحداثة، قراءات في الفكر العربي المعاصر/ الدار البيضاء، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1987

-الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر الفلسفي في المغرب/ مالطا، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992

-الخطاب الأشعري/ بيروت، دار المنتخب العربي، 1992

-الإسلام وأسئلة الحاضر/ الرباط، منشورات الزمن.

-الوطنية والتحديثية في المغرب: مجموعة دراسات حول الفكر الوطني وسيرورة التحديث في المغرب المعاصر.

-الإسلام وأسئلة الحاضر/ 2001.

رسائل كيلوباترا

محمد عرش

متابعة: عبد الحق السلموتي

تعززت الخزانة المغربية قبيل نهاية عام 2023، بديوان جديد للشاعر والناقد المغربي محمد عرش، وسمه بـ : «رسائل كيلوباترا». وقد صدر في حلة قشيبة عن منشورات جمعية ورشة للتربية والثقافة والفن بالدار البيضاء. يتكون من ثلاث عشرة قصيدة / رسالة موزعة على 127 صفحة من القطع المتوسط. زين الغلاف الأول لهذا الإصدار الشعري، بلوحة فنية معبرة وبديعة للتشكيلي الموهوب أيوب المودن، أما التصفيف والإشراف الفني الأنيقان، فأبدعتهما أنامل الزجال والمسرحي كمال الإدريسي.

يبتعد هذا المنجز الأدبي الجديد، لصاحب «أحوال الطقس الآتية» عن القصائد، وينفتح على الكتابة حتى تصبح الرسائل خطا واحدا، كأن شاعرنا يسعى من خلال هذه التجربة، إلى بعث كيلوباترا من جديد لتنتقد سلوكات العالم. وسيلحظ القارئ كذلك أن هذه الرسائل منفتحة على أجناس أدبية شتى، من بينها المسرح.

ولأن المسرح في الأصل كان شعرا، فمحمد عرش أيضا بدأ مساره الإبداعي ممثلا، إذ اعتلى مستهل الثمانينيات خشبة المسرح البلدي «المهدم» بالدار البيضاء، وقدم دورا في مسرحية ذاع صيتها في ذلك الزمن.

يحضر الشاعر الكبير أدونيس، عبر: بيت شعري يتصدر هذه الرسائل «كيلوباترة، متى ستصبح الأرض مثلك سماء نفسها»، وعلى ظهر الغلاف رسالة موجزة منه بخط يده إلى مبدع «بنصف سماء» موقعة بتاريخ: 1991/09/12، مما جاء فيها : «أحب أن أقرأ لك نصوصا أخرى، وآمل أن أنشر أكثر من نص - دفعة واحدة».

جدير بالتذكير أن الدكتور محمد عرش، هو شاعر من جيل السبعينيات وإن تأخر دخوله غمار النشر، كمجموعة من أبناء جيله إلى غاية فترة الثمانينيات، و»رسائل كيلوباترا» سابع دواوينه، علما أن ممارسته للنقد الأدبي، لم تتوقف في حدود الأوراق التي يحررها من حين لحين حول مجموعة من المنجزات الإبداعية، في شتى الأصناف الأدبية، بل لمسناه يطرق أبواب النقد الأكاديمي، عبر إصدارين وازنين هما : «بعيدا عن سماء مريم» و»شعرية القصيدة المغربية»، صدرا أيضا خلال عام 2023.

ولأن المناسبة شعر، نقترح على قراء هذه الورقة التعريفية، المقطع التالي من «رسائل كيلوباترا» :

قبل قراءة النص المسرحي ،
نعيش
اختيار الدور
وبعد أداء الدور ، نخاف ،
ونحن نقترب من الصعود إلى الخشبة.
الخوف من المواجهة
الخوف من النسيان
وبعد الغوص في النص
لا
نخاف

رحيل الكاتب والباحث في التراث الغرباوي بوسلهام الكط

رُزئت الساحة الثقافية المغربية في رحيل رمز من رموزها الكاتب والباحث بوسلهام الكط، وذلك ظهر يوم الاربعاء 24 يناير 2024 عن سن يناهز 71 سنة.

وقد أغنى الفقيد الذاكرة المغربية في مجال التراث والتربية والتعليم والفلسفة، وكان الراحل قيد حياته يتحلى بشخصية معروفة ومحبوبة، يوغل في البحث عن أسرار الكون والحياة والإنسان، مهووسا بالتأمل والتساؤل هنا وهناك، كان هذا هو حبه الوحيد في الحياة وهذه هي الطريق التي اختار العمل فيها.

الراحل ازداد بمشرع بلقصيري. حاصل على الإجازة في الفلسفة في علم النفس وعلم الإجتماع.. وكذا دبلوم المدرسة العليا للأساتذة.. اشتغل أستاذا لمادة الفلسفة بثانوية الامير مولاي رشيد، في سنة 2000 كما أنه عضو اتحاد كتاب المغرب .

ساهم الراحل في إغناء الذاكرة التاريخية المغربية في ميدان التراث بصفة عامة والغرباوي بصفة خاصة، نشر بحوثه في الكثير من الجرائد الوطنية والمجلات المغربية والعربية مثل: فكر ونقد، مجلة الشعلة، مدارات فلسفية، ومجلات عربية مثل: مجلة «الناقد» اللبنانية، و»الأدب» و»الإجتهاد».

ومن مؤلفاته الكثيرة والعديدة كتاب: «قراءات في مجال التربية والتعليم على المستويين السياسي والإداري» 1998، «إشكاليات التعليم الأساسي والتدريس الهادف بالمغرب» 1998، «من وحي التراث الغرباوي (الجزء الأول)» 1999، «تأملات في الفكر الفلسفي المغربي المعاصر..!؟! « 2005، تأملات في أدب رسائل السجن في الأدب المغربي المعاصر» 2006، «من وحي التراث الغرباوي (الجزء الثاني الثالث والرابع)» 2007، «قراءة تأملية تساؤلية ونقدية لدروس الفلسفة والمقررات والكتب المدرسية» 2007، «قراءة تأملية تساؤلية ونقدية لدروس الفلسفة – لكل التخصصات» 2008، «من وحي التراث الغرباوي (الجزء الخامس والسادس)» 2008، «المقاومة في التراث الشعبي بين الكلمة والفعل والحركة ..؟!» 2009، «إشكالية الوحدة والانقسام في الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي .. بين الدين والسياسة.. ؟!» الجزء الأول والثاني» 2009، «إشكالية التسامح والديمقراطية في الفكر الإسلامي.. ؟!» 2010، «تأملات في الفكر السياسي المغربي المعاصر.. !؟!» 2010، «نحن والفكر الإسلامي.. ؟!» 2010، «كتاب السياسة والتصوف ..أية علاقة وأية عودة « 2016.

أما آخر اصدارات الراحل لسنة 2024 فأربعة كتب هي: «البحث عن الزمن الجميل»، «السخرية منهج للإبداع والنقد»، «دروس من التاريخ العربي الجريح»، «وماذا بعد اختفاء فيروس كورونا».

نسأل المولى أن يشمل الفقيد بواسع الرحمة والرضوان، ولعائلته الصبر والسلوان،

إنا لله وإنا إليه راجعون.

قصة قصيرة

حكاية الكرسي V/13

عبد الله زروال

سبق «الشاوش» رئيس المصلحة المعين حديثا بخطوات خفيفة إلى المكتب، فتح له الباب وهو يردد عبارات الترحيب، المكتب يعبق برائحة منظف نفاذة تهيج لها خيشوم الرئيس فعطس عطسة مدوية، سارع «الشاوش» إلى إشعال الضوء، ورفع الستائر، وفتح النوافذ، ومن غير أن يتوجه إليه بالسؤال أنشأ يفضي بما لديه:

- الموظفون لم يلتحقوا بعد، ما عدا «سي عبد المالك»، هو في مكتبه الآن، «سي عبد المالك» موظف مثالي، منتظم منضبط، يجيء في ساعته دون أن يتأخر ثانية، قليل الكلام، ضليع في القانون، ويكره البيروقراطية...

عجب لاستعماله كلمة بيروقراطية، «الشاوش» تعمد ربما التلفظ بهذه الكلمة لينبهه إلى أنه نهر صغير يوجد فيه ما لا يوجد في بحر عظيم. قاطعه بإشارة شديدة من يده، حتى لا تتحول نشرته الإخبارية الموجزة إلى نشرة مفصلة، ويعلمه من البداية بأنه رئيس مصلحة صارم مهيب يكره الكلام الزائد عن الحاجة.

جال ببصره في أرجاء المكتب، ثم جلس على الكرسي، فسمع أزيزا، تحرك يمنة ويسرة فاحتد الأزيز، قام ليفحص الكرسي، انتبه إلى رقم الجرد المثبت خلف مسند الظهر **V/13**، عاد للجلوس ثانية، فعاد الأزيز، فتح الأدراج، قلب بعض الملفات، تصفح بعض الصفحات، فتح الحاسوب وجده بطيئا وسطح مكتبه مكدس بالاختصارات. توقف عن الحركة فتوقف الأزيز، هم بمباشرة عمله، إلا أن السؤال الذي شغل باله وحيره وأرقه ألح عليه من جديد: لم تراجع ذلك الموظف في آخر لحظة عن الترشيح لمنصب رئيس المصلحة؟

سمع دقة خفيفة مترددة خجلى على الباب، دخل أحد الموظفين منحنيا مبالغا في خفض هامته، وضع باقة ورود مختلفة منتقاة بعناية على طرف المكتب، وأطلق لسانه بسيل جارف من التهاني والمباركات والتمنيات بأدب زائد حتى لم يبق له سوى إطلاق زغرودة مديدة حارة. تجهمه، بدا أنه لم يستسغ دغدغاته المتملقة المفضوحة، زاد وجهه صرامة ونظراته حدة، اضطرب في كرسيه مفتعلا القيام، ليفهمه بالإشارة، فسمع أزيز الكرسي من جديد. الموظف لبيب نبيه؛ بل داهية متسربل بالطيبة، فهم الإشارة، وقال:

- أزيز هذا الكرسي مزعج، لا أعرف كيف ستتحمله، الكرسي متين من الطراز الرفيع لكنه أثقل عليه بوزنه الزائد، رحمه الله، كان سمينا مترهلا، على هذا الكرسي فاجأته نوبة قلبية حادة، على إثرها نقل في وضعية حرجة إلى المصحة، أيام معدودة ولقي الله، مسكين فعلتها به اليمنى، أقصد الولائم الكبرى، لم يكن كذلك، عندما جاء إلى المصلحة جاء مهزولا شاحبا.

وقف هذه المرة وقوفا تاما ليحمله على السكوت والانصراف، لكنه، وهو يغادر المكتب قال له متماديا في التزلف:

- الحقيقة أنتم أولى برئاسة هذه المصلحة، والله إنكم لتستحقونها، سمعة طيبة، شهادة عليا، خبرة طويلة، كفاءة متينة، حسنا فعل ذاك الذي انسحب.

هنا عزف على الوتر الحساس، ودون أن يشعر دعاه إلى الجلوس وسأله عن سبب انسحابه بنبرة تواري الاهتمام، فربما يجد لديه الجواب الكافي الشافي. جلس الموظف، وضع رجلا على رجل، وأخذ كل راحته في المحادثة:

- «الشاوش» لا يكتم عني شيئا، ينقل إلي كل ما يتسمعه وهو يتنقل بين المكاتب ناقلا الملفات، طبعا أنا أعتني به من حين لآخر، أخبرني أنه سمع موظفتين تتحدثان، قالت الأولى بأنه رأى نفسه في المنام كلما حاول الجلوس على الكرسي تفكك الكرسي إلى أجزاء وسقط على الأرض، فصرف النظر عن الموضوع؛ أما الثانية فقالت بأن والدة زوجته حذرتها شوافة خطيرة من أن يجلس على كرسي المصلحة؛ لأنه كرسي مشؤوم مذموم، ما من أحد يجلس عليه إلا وحلت به المصائب.

- خزعبلات!

- تصور المنظفة قالت بأنها وهي تنظف المكتب رأت الكرسي يتحرك ويدور، «والشاوش» المتعلم يا حسرتاه! قال بأنه سمع أصواتا غريبة تصدر عنه وهو يحاول إصلاحه بتثبيت أحد البراغي.

- خزعبلات!

- سألت «سي عبد المالك» عن الموضوع، فقال لي بأن كل ما في الأمر أن المترشح عرف بأنهم سيكيدون له كيدا، وأنه لن يقدر على مواجهتهم، فخاف من تحمل المسؤولية، وعدل عن الفكرة.

لم يعلق رئيس المصلحة الجديد هذه المرة، فانصرف الموظف منتصب القامة، وتركه مشتت الفكر، موزعا بين التفكير في خطط تدبير المصلحة التي أيقن أنه لن يكون بالأمر الهين وبين ما سمعه عن الكرسي الذي لا يكف عن الأزيز. تسربت إليه الهواجس القاتمة، حاول أن يقارعها بسلاح العقل غير أنها لا تلبث أن تعود لمناوشته من جديد، أمضى ساعات على تلك الحال، وحين اقترب موعد الخروج، أقبل «الشاوش» وأخبره بأن «سي عبد المالك» خرج في الميقات الرسمي. سأله هذه المرة عن باقي الموظفين فأجابه على قدر السؤال لكن مع مد الصوت والإشارة باليد:

- غادروا بعد منتصف النهار.

خرج من المصلحة، وقف على الرصيف وذهنه يمور بالخواطر الغامضة، اقتربت منه امرأة في الثلاثين من عمرها، ممشوقة القد، ظاهرة الطول، على قدر لطيف من الجمال، كانت في حالة من الاضطراب البين، تحمل في يدها ظرفا، تلفتت كثيرا، تلعثمت وهي تبحث عن مفتتح للكلام، بينما شبط فيه ابنها، تهيأ له أن أحدا يستعد لتصويره، فتنصل من الطفل بصعوبة، وهرول ليعبر الطريق إلى موقف بعيد ركن فيه سيارته القديمة، كادت تدهسه سيارة أجرة انعطف سائقها دون أن يقف عند علامة قف. مر بكلب ضال، تخيله كلبا شرسا سينقض عليه، ويطبق بفكيه على ساقه، ويمزق بأنيابه سرواله ولحمه، ركض إلى سيارته، وعاد إلى داره يسوق على مهل متوجسا كسائق مبتدئ. لما وصل إلى الدار استقبلته زوجته فتظاهر بابتهاجه بالمنصب الجديد، وراح يحدثها عن حالة الفوضى التي تعيش فيها المصلحة، وكيف أنه سيضع حدا للتسيب، سيكشف الأشباح، ولن يتغاضى عن المتأخرين والمتغيبين، ولن يتساهل مع المتملقين، فهو لا يعرف المداراة والمحاباة.

بعد عشاء دسم، هو لا يؤمن بأن الليل منحدر بل يراه عقبة، جارى زوجته كالمعتاد، وشاهد معها فيلما من أفلام الرعب، هي مدمنة على مشاهدة أفلام الوحوش والمخلوقات الغريبة. غلبه النوم قبل نهاية الفيلم كالعادة، واستغرق في النوم، إلى أن استيقظ صارخا منخلع الفؤاد من شدة الهلع من الحلم المزعج الذي رآه، جاءت زوجته، وضحكت عندما رأته يتفحص فراشه ومنامته، ورجته أن يحكي لها الحلم، امتنع في البداية، لكنها رجته، بل توسلت إليه، هي تحب الوقائع العجيبة، فأخذ يحكي:

-أمسكت كرسي المصلحة من مسندي الذراع صائحا ستعترف، بالسيف أو بالخاطر ستعترف.

- الكرسي أخذ يعترف: الصراحة لم أكن أطيق بنيته الضخمة، كانت كتل لحمه وشحمه تفيض على جانبي، مرة تهاوى علي فأخذت في الأزيز من فرط الثقل بدون توقف، ومرة تطايرت على جلدي شرارات اندلعت من موقد صغير يتوهج فيه الجمر ويحترق البخور، ومرة أحسست بأحدهم يدس تحت موضع المقعد حرزا غريبا. لن أسمح لأي كان بالجلوس علي حتى ولو كنت أنت.

-تحديته، حاولت أن أجلس عليه بالقوة، تمكنت فعلا من الجلوس وإذا بسهام حادة تنغرز في ...، طفر الدم، ولم يتوقف النزيف...

من أعمال الفنان الكاطالوني جاومي بيتارتش

كيف نحلم؟ ولماذا نحلم؟

أصدر البرفسور وعالم الأعصاب البريطاني، أستاذ علوم الأعصاب (البيولوجية العصبية، والفيزيولوجيا العصبية) في جامعة بركلي، وأستاذ علم النفس سابقا بجامعة هارفارد، ومدير مركز علوم النوم البشري ماثيو ووكر سنة ٢٠١٧، دراسة علمية تستند إلى آخر الأبحاث العلمية في علم الأعصاب الفيزيولوجية، وما انتهت إليه تجاربه السريرية، كتابا مهما لفهم جديد لعدد من القضايا التي لم تكن في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية قديما وحديثا الامحط خلاف، ولم ترس الأبحاث فيها على نتائج الا لتجعل منها فرضيات لأبحاث أخرى.

د.إبراهيم أزوغ

كلية اللغات والفنون والعلوم الإنسانية جامعة الحسن الأول – المغرب.

في موضوع الكتاب: من النوم إلى الأحلام

يتحدد الموضوع العام للكتاب الذي يتألف من أربعة أجزاء تمتد فيما يزيد عن 500 صفحة من الحجم المتوسط، في بحث «تأثير النوم على وظائف الدماغ البشري، وقد عرف الكتاب مؤخرا طريقه إلى المكتبة العربية بترجمة قدمها المترجم السوري الكبير الحارث النبهان الذي عرف بترجماته لعدد من الدراسات العالمية الأكثر إثارة للجدل، وكذلك بترجماته لنصوص روائية عالمية؛ نصوص: لجورج أورويل، إيفان كليما، كارل أوفه كناسغارد، لاسلو كراسناهوركاي، دونا تارت، باولا هوكينز (...).

ولمعالجة هذا الموضوع معالجة علمية، يعمل ووكر على تمحيص فرضياته وما أنجز من أبحاث سبقته في دراسة الموضوع، وما له صلة به من القضايا والموضوعات بالاستناد إلى ما قام به من تجارب سريرية مختبرية، تتوسل أجهزة المسح للدماغ في وضعياته المختلفة، سواء في حالة اليقظة أو في حالة النوم، كما اعتمد على ما أنجزه علماء الأعصاب في الجامعات والمختبرات العلمية العالمية الأخرى من تجارب، وما توصلوا إليه من نتائج علمية أصبحت محط اجماع بتكرارها وإثبات خلاصاتها.

إن هذا الكتاب القيم في موضوعه وكذلك في منهجه، وبما يقدمه من معارف جديدة ومهمة للبحث المعرفي العلمي الإنساني في مجال علم الأعصاب والتحليل النفسي، هو ما قد يمكن من إعادة النظر في الكثير من الحقائق والمسلمات، وفتح آفاق ومباحث علمية جديدة.

ولأن الكتاب مصنف في الأبحاث المنجزة في علم النوم البشري، فقد خصص مؤلفه قسمه الأول والثاني بفصولهما لتحديد المقصود بالنوم وأهميته ودوره للصحة العقلية والجسدية للإنسان، وما قد يؤرق نوم الانسان وخطورة ذلك على صحته العقلية والبدنية، والتغيرات التي يعرفها نوم الانسان على امتداد عمره، وخصص الفصول الست من القسم الرابع وملحق الكتاب للتأكيد على أن حالة نقص النوم ليست سوى الصيغة البطيئة لقتل النفس، وفي ارتباط النوم بالمجتمع والجماعة، وقلة نومنا الجماعية خاصة في القرن الواحد والعشرين يجيب القسم على سؤال لماذا ننام ؟ وكيف؟ مقدما حلولا لنومنا الجماعي، الذي أتلفت أوقاته وأربكت طقوسه بخروجنا إلى الأماكن العامة الصاخبة ودخول التكنولوجيا لبيوتنا وغرف نومنا ليلا.

ويعنينا في هذا التقديم الموجز للكتاب، قسمه الثالث المخصص لموضوع انشغالنا واهتمامنا، المعنون بـ» كيف نحلم؟ لماذا نحلم؟». وإذا كان تدقيق وحصر مجال الاهتمام مُحددا علميا لكل بحث، يُلزمنا الإشارة إلى أن الكاتب منشغل بالأحلام الطبيعية التي يرها الحالم أثناء نومه، فيما يشمل موضوعنا الأساس، الأحلام في المؤلفات المعرفية والإبداعية، بما يعنيه ذلك من امتداد اهتمامنا إلى الأحلام الابداعية التي لم تحلم قط، أو تلك التي تم تعديلها أو تغيرت صيغها بالرواية فحرفت عن أصلها؛ الأحلام سواء أكانت صادقة أو زائفة تلك التي ترد في كتب التاريخ أو التراجم أو في كتب التعبير والتحليل النفسي بعيدا عن التقسيم الإنساني التقليدي للحلم إلى حلم ورؤيا.

يؤكد هذا القسم في بداياته أن علماء الأعصاب بفضل تطور آلات المسح الدماغي، وتمكينها العلماء من تعداد التجارب وتغطية مختلف مستويات الدماغ وفي مختلف وضعياته وكذلك في أوقات وأوضاع إنسانية مختلفة، قد لاحظوا وخاصة بمراقبة حالات الدماغ، حدوث تغيرات مفاجئة في النشاط الدماغي، حينما يدخل الانسان في حالة النوم ويبدأ الحلم، وقد قادهم ذلك إلى اكتشاف عظيم يتمثل في «رؤية كيف تدب الحياة في أجزاء الدماغ العميقة التي كانت مخفية عن أنظارنا عندما تبدأ الأحلام في مرحلة نوم حركة العين السريعة»(الكتاب ص284).

لقد مكنت هذه الأجهزة المتطورة، وتكرار التجربة بصيغ مختلفة، العلماء من الاكتشاف بأن أجزاء كثيرة من الدماغ تضيء على شاشة جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي بمجرد بداية الحلم، وزيادة حادة وواضحة في نشاط مناطق بعينها في الدماغ (ن- م، 284) ويحدد ووكر هذه المناطق في أربع مناطق أساسية؛ أولاها ما أطلق عليه المناطق الإبصارية الفراغية، الموجودة في مؤخرة الدماغ؛ وهي المسؤولة بحسب علماء الدماغ عن الادراك البصري، والثانية، المناطق المسؤولة عن الحركة؛ حركة الانسان في اليقظة وكذلك أثناء النوم، ومن المناطق التي يزيد نشاطها كذلك بحدة المنطقة الدماغية المدعمة للذاكرة، أما المنطقة الأخيرة، فهي المسؤولة عن انفعالات الإنسان.

ماثيو ووكر يجدد البحث في الأحلام وتفسيرها من منظور علمي عصبي عضوي في كتابه «لماذا ننام»1

ولا يمكن للقارئ غير المتخصص في مجال الدماغ وتشريحه، وفي علوم الأعصاب على اعتبار أن الدماغ هو أهم عضو لمركز الجهاز العصبي الإنساني، إلا أن يخلص من خلال هذه النتائج والتقسيمات التي تزكيها التجارب العلمية المختبرية، إلى التأكيد على أن ما ذهب إليه فرويد من ربط الأحلام بالذاكرة والانفعالات يؤكد أهمية أطروحته ونباهة هذا المحلل النفسي الذي سبق عصره، واضافة إلى ارتباط الأحلام /الرؤى بالرؤية البصرية التي تظل المنطقة الدماغية المتحكمة فيها، نشطة مثل المنطقة الدماغية الحركية، مثل نشاطهما في حالة اليقظة.

وتؤكد الأبحاث حسب ما جاء في كتاب ووكر، أن المنطقتين الدماغيتين للانفعالات وتدعيم الذاكرة، والمرتبطتان بالأحلام، يزداد نشاطهما بنسبة مهمة مقارنة بحالة اليقظة، مما يجعل الانسان في وضعية النوم والحلم في «حالة تتسم بتفعيل شديد لمناطق الذاكرة الخاصة بالمعلومات الشخصية والانفعالات والعواطف والحركة والابصار، إلى جانب انخفاض فعالية المناطق التي تتحكم في التفكير العقلاني» (ص286) وهي الخلاصة نفسها التي يؤكدها فرويد من ارتباط الأحلام بالعواطف والانفعالات والذكريات والقابعة في أعماق الذاكرة، قريبة كانت من زمن حصول الحلم أو بعيدة.

وفي مجرى آخر تطرح فرق العلماء بناء على هذه النتيجة وعلى المسوحات التصويرية للدماغ، سؤال التنبؤ الصائب بالأحلام قبل سماعها من الحالم. وقد أكد ووكر أن العلماء اليوم يستطيعون أن يميزوا بين الأحلام التي تهيمن عليها المشاهدة البصرية، وتلك التي تكون فيها الهيمنة للحركة، أما الانفعالات والتذكر فسمتين

أساسيتين في الحلم وإن كانتا تحضران كذلك بدرجات.

إن التنبؤ بطبيعة الحلم؛ بصريا أو حركيا أو حلما انفعاليا، أصبح من النتائج التي حسم فيها العلم مبدئيا، ومرحليا، إلا أن السؤال الذي تطرحه الأبحاث العلمية اليوم، وهو سؤال مهم ومرتبط بالأول، يمكن صياغة كما يلي: إلى أي حد يمكن التنبؤ بحلم شخص، إن كان يحلم بالسيارة أو بالطعام أو بغيره، بدلا من التنبؤ بطبيعته فقط؟

في هذا السياق وبحثا عن إجابات ممكنة للسؤال استنادا إلى أبحاث ودراسات نفسية وعصبية يعود ووكر إلى فرويد ليُثني على أبحاثه واضافته في دراسة الأحلام وتأويلها، ويَنْتقد تصوره النفسي للحلم، وخاصة ما يتعلق منه بمفتاح فك شفرات الحلم وتأويله، عن طريق إزالة التحريف الذي يلحق الحلم بواسطة تداعيات الحالم.

واستنادا إلى تجربة قام بها علماء الأعصاب يعرض ووكر تفاصيلها في (ص293) من الكتاب، ورغم ما يمكن تسجيله من ملاحظات، يمكن أن تشكل نقدا لهذه التجربة وأساساتها التي قامت عليها، يستنتج ماثيو ووكر أن تحليلات فرويد النفسية للأحلام وتأويله لها، يتسم بما أسماه « مرض العمومية»، وهو ما يدفعه إلى نزع طابع الجودة العلمية عن التأويل الفرويدي ونظريته.

ويوضح ووكر المقصود بعمومية التأويل الفرويدي بقوله إن تأويلات فرويد بوصفها على أنها «قادرة على انتاج تفسير مناسب لأي شيء على الاطلاق» (293ص)، وذلك لأن «أسلوب التحليل النفسي- يقول ووكر-الذي تقيمه نظرية فرويد غير علمي وأنه لا يمتلك قدرة منهجية معروفة موثوقة على تفسير الأحلام» (ص 295). وإذا كان ووكر وعلماء الأعصاب يرفضون التفسير الفرويدي للأحلام فإنهم لا ينتقصون من قيمته وأهميته ودوره في تطوير التفكير في الأحلام.

ويذهب ووكر أبعد من ذلك إلى التأكيد على أن فرويد باعتباره مؤسس التحليل النفسي للحلم كان يعرف حدود نظريته، وكان على علم بأن تطور الأبحاث العلمية ستأتي على التفسير العضوي للدماغ وتكشف حقيقة الأحلام، ويستند ماثيو ووكر في هذا التأكيد على ما جاء في كتاب فرويد المؤسس تفسير الأحلام حيث يقول» في يوم ما، سوف تتوصل دراسات أكثر عمقا إلى تتبع هذا الطريق إلى مسافة أبعد لتكتشف الأساس العضوي لهذه العقلية» (م-ن، ص295). ويرى ووكر أكثر من ذلك أن فرويد كان قد حاول قبل أن يقدم تصوره النفسي تقديم تفسير عصبي علمي لحالة الدماغ خلال عمله، تحت عنوان «مشروع السيكولوجية العلمية» (م-ن، ص: 295-296) لولا أن ميدان علم الأعصاب لا زال في بدايته، ولم يكن ليخول لفرويد تحقيق هذا السبق الذي كان يحلم به، يقول ووكر «للأسف، كان ميدان علم الاعصاب لايزال في طفولته آنذاك. أي إن العلم، ببساطة، لم يكن مستعدا لمهمة تفكيك الأحلام» (ص296). إلا أن ذلك كله، إذا كان يحول دون توجيه اللوم لفرويد، فإنه لا يجوز بالنسبة للعلم قبول التفسير الفرويدي غير علمي للأحلام في مبادئه ومنطلقاته.

وظيفة الأحلام: لماذا نحلم؟

يؤكد علم الأعصاب منذ البداية أن للأحلام وظيفة، لكن السؤال غايته إبراز أهمية الحلم ودوره في الصحة العقلية والجسدية للإنسان، ليس باعتباره حارس النوم مثلما يقول فرويد، بل لأن الحلم كما ستكشف تجارب علماء الأعصاب معالجة ليلية للإنسان.

في الفصل العاشر من الجزء الثالث من كتاب «لماذا ننام» لووكر والمعنون بـ» الحلم باعتباره معالجة ليلية»، يستمر ووكر في عرض نتائج الأبحاث العلمية العصبية حول النوم والأحلام وحالة الدماغ، مؤكدا أن ما خلصت إليه الكثير من التجارب يثبت على أن الأحلام تشكل معالجة ليلية تنزع الألم الحارق من المشكلات الانفعالية الصعبة التي تواجه الانسان.

إن أهمية هذه النتيجة التي تؤكدها أبحاث البيولوجيا العصبية وعلم الفيزيولوجيا العصبية تتمثل في التأكيد على أن الأحلام، هي عملية إعادة تفعيل للذاكرة والانفعالات، وهي خلاصة نجد لها آثار في أبحاث فرويد، وكذلك كون الأحلام معالجة، إذا ما اعتبرنا الأحلام في تحقيقها للمبكوت معالجة من نوع آخر، لكن المعالجة في تصور ووكر تتحدد في « معالجة (الأحلام) للتجارب والأمور المزعجة الموجودة في الذاكرة في ظل الهدوء العصبي (انخفاض مستوى النورأدرينالين)، أي في ظل بيئة دماغية آمنة» (ص 302) التي تشخصها المسوحات الآلية، وهو ما يجعل الباحثين في هذه المجالات المعرفية يعتبرون أن الأحلام بلسم ليلي للانفعالات الجارحة لحياة النهار.

ومن الخلاصات الأخرى التي تؤكدها هذه النظرية العلمية العميقة يُلخصها قول ووكر «إن عملية نوم حركة العين السريعة (النوم الذي تحصل فيه الأحلام)

تنجز هدفين لهما أهمية حاسمة -1 النوم لتذكر تفاصيل التجارب القيمة وضمها إلى المعارف الموجودة ووضعها ضمن المنظور الشخصي. -2 النوم لنسيان، أو لحل، الشحنة الانفعالية المؤلمة التي تكون قبل ذلك متعلقة بتلك الذكريات» (ص302 - 303).

إن هذه النتائج التي تجعل من الحلم مراجعة عميقة للذكريات الانفعالية بغايات علاجية، لا تستبعد أطروحة فرويد في ربطه للأحلام بالقابع من ذكريات الطفولة في الذاكرة، الا أن هذا الارتباط يسير في مسار آخر يخالف التفسير الفرويدي؛ إذ تطرح النظرية العصبية سؤالا جديدا تأسيسا على أن الزمن ليس هو ما يعالج أعطاب انفعالاتنا النهارية بل هو الزمن الحلمي، والسؤال هو: هل من الضروري أن يحلم المرء بالحوادث نفسها، لتذويب ما تحدثه من فينا من انفعالات في النهار، والمحافظة على سلامة عقولنا من القلق والاكتئاب؟

في اجابتها عن السؤال الذي طرحته عالمة الأعصاب بجامعة شيكاغو بعد تجارب عديدة، يقول ووكر أثبتت روزاليند كاترايت، أن الأحلام التي يمكنها أن تكون مُعالجة ليلية، لا بد أن تشمل بوضوح الموضوعات الانفعالية لصدمة الحالم في النهار « فذلك الحلم ذو المحتوى المحدد هو وحده القادر على تخليصهم من آثار للصدمة» (ص307).

مثلما تأكد للعلماء من خلال تجاربهم الكثيرة، أن بعض الأحلام يمكن أن تشكل تفسيرا لحوادث النهار أو حلا للمشاكل والعوائق التي قد تصادف الحالم؛ بحيث يشكل انشغاله بما عرفه في يومه منها محفزا للحلم لبحث الدماغ أثناء النوم، عن حلول لها، فمناطق معينة في الدماغ مشتركة في وظيفتها بين حالتي الصحو والنوم، تختص بقراءة تعابير الوجه الانفعالية.

الحلم والابداع: التحكم في الأحلام صيغة للإبداع

يعتبر علماء الأعصاب أن عمليات الحلم هي حاضنة الابداع؛ لأن الحلم إذا كان منشطا للذكريات والانفعالات، فإن عملياته هي القادرة والمساعدة على مزج العناصر الأولية للذكريات والانفعالات وصهرها يقول ووكر «فخلال حالة الحلم، يقوم الدماغ بالتفكير في كميات كبيرة من المعارف المكتسبة، ثم يستخلص منها القواعد الشاملة والقواسم المشتركة أي أنه يستخرج جوهرها. ثم نصحو من النوم مزودين بشبكة على امتداد العقل قادرة على الغوص عميقا لاستخراج حلول المشكلات» (ص 317 - 318). وهذا الأمر هو ما يفسر في نظر ووكر النتاجات الفنية والعلمية العظيمة، التي صرح أصحابها بأنها كانت نتيجة رؤية في الأحلام (حلم ديميتري إيفانوفيتش مندلييف العلمي؛ من أشهر الكميائيين الروس- حلمي بول ماكارتني؛ شاعر ومغني بريطاني شهير واحد من أعضاء فرقة البيتلز- وماري شيلي الروائية الإنجليزية الكبيرة صاحبة رواية فرنكشتاين، وقد كتب اسم الروائية في ترجمة الكتاب بشكل خاطئ»ميري شيري»).

لقد لاحظ العلماء فيما يؤكد ووكر أثناء التجارب، أن عمل الدماغ في حالة النوم والحلم غيره تماما في حالة اليقظة؛ ذلك أنه بمجرد النوم وبداية الحلم «يبدأ حدوث شكل ابداعي من تمازج الذكريات. لا نعود مقيدين برؤية الروابط الأكثر اعتيادية والأشد ووضوحا بين وحدات الذاكرة التي لدينا (...)والدماغ يصير منحازا انحيازا فعالا صوب التماس الروابط الأشد بعدا والأقل وضوحا بين مجموعات المعلومات» (ص326).

ولا نجانب الصواب مرة أخرى إذا ما أكدنا، ن هذه الخلاصة تكاد تطابق ما ذهب إليه فرويد من كون قوانين الحلم لها منطق خاص بها غير منطق العقل، وهو ما حدده بتحديده لطبيعة الحلم وطرق تشكله وبنائه (التكثيف/ النقل / المراجعة الثانوية/ رمزية الحلم/ رقابة الحلم...). ويستطيع الحلم بفضل هذه القوانين التركيب بين مجموع الانفعالات والأحداث والأفكار التي تظل قابعة في لاشعور الفرد (محتوى الحلم الكامن) وصياغتها في محتوى ظاهر، فعدسة الأحلام بعبارة ووكر ذات زاوية أوسع من عدسة النهار التي لا تستطيع أن تلم مجموع العلاقات والمعلومات القائمة بين ذكريات الفرد الواحد.

إن علماء الأعصاب يعتبرون الاحلام بمثابة فرن لصهر الذاكرة بمخزونها الواسع، مثلما أن الأحلام صيغة لفك شيفرات التعبير البشري، وحل المشاكل اليومية للفرد، والجواب عن الإشكالات التي تعترضه؛ فوظيفة الأحلام لا تتوقف « عند حد صهر المعلومات بطرق إبداعية، لأن الحلم قادر على المضي بالأمور خطوة أخرى إلى الأمام. إن نوم حركة العين السريعة قادرة على خلق معرفة مجردة شاملة، وعلى انجاز تنسيق فائق للأفكار والمفاهيم» (ص329) وهو ما يجعل استثمار الحلم وسيلة وصيغة لتحقيق الإشراق والابداع والتميز.

خلاصة القول إن الأبحاث العلمية لعلماء الأعصاب المستندة إلى البيولوجيا العصبية والفيزيولوجيا العصبية، قد قدمت نتائج وخلاصات مهمة لتطوير تصوراتنا وفهمنا الأحلام، مؤكدة ما ذهبت إليه أبحاث وافتراضات سابقة سواء في مجالات العلوم الإنسانية منذ التعبيرات الحلمية التقليدية مرورا بنظرية الأحلام التي أرسى أسسها سيغموند فرويد بأبحاثه النفسية العديدة، أو منسجمة فيما وصلت إليه مع ما عبرت عنه التعبيرات الفنية الإنسانية عبر التاريخ حول الحلم، مثلما لم تتوقف تجارب علماء الأعصاب عن تفنيد ودحض الكثير من التصورات ونتائج الأبحاث التي تقررت باعتبارها مبادئ ومسلمات لتفكيك الأحلام وفهم معناها ووظائفها.

---

1 - ماثيو ووكر: لماذا ننام اكتشف طاقة النوم والأحلام، ترجمة الحارث النبهان، دار التنوير، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2019.

ملف

رحيل بعد اطمئنان

د. محمد احميدة

رحل عنا عميد الأدب المغربي، وكان وقع الرحيل عنيفاً....

لكنه رحل ولم يرحل! فسيظل اسم عباس الجراري مقيماً بين شغاف قلوبنا، وستظل مدرسته العلمية، من خلال الأساتذة الباحثين الأكاديميين وطلابهم من الأجيال الجديدة، وفية لمبادئ المدرسة الجرارية، في الدفاع عن الهوية المغربية، وخدمة الثقافة الوطنية، في المستويات المختلفة. ولنا فيما خلّفه الراحل من أعمال فكرية، نبراساً نتخذه أُسّاً رئيساً، سيسعى خريجو مدرسته وغيرهم من المهتمين بأدبنا المغربي، إلى ترسيخه، وتعميق البحث في هذا الأدب بشقيه، المدرسي والشعبي.

ومما يُهَدِّئُ ألم فراق العميد، أن رحيله صحبته ابتسامة عريضة رسمت على محياه، وهو في النزع الأخير، تحكي اطمئنانا بما تحقق أخيرا في مجال شق من الأدب الشعبي متمثلا في أدب الملحون، الذي سُجِّل تراثا لا ماديا من طرف منظمة اليونسكو، وهو الأمل الذي تحقق بعد عقود من المنافحة والصراع،

اللذين خاضهما عميد الأدب المغربي، الراحل عباس الجراري، ردحا من الزمن، وامتدا من الجامعة المغربية إلى مستويات أخرى، وظل صاحب «القصيدة» صامدا في الدفاع عن الهوية الأدبية المغربية من خلال «القصيد الملحون»، الذي حرص على إخراج مجموعة من دواوينه، في إطار أكاديمي، تحت إشرافه، ووضع لتلك الدواوين مقدمات، هي عبارة عن دراسات رصينة، وعملت أكاديمية المملكة المغربية على إصدار تلك المجاميع التي كان إخراجها إنقاذا لجزء مهم من تراث الملحون. وبعد كل هذا، تبقى أطروحة العميد «الزجل في المغرب: القصيدة» أمّ الدراسات الأكاديمية الجامعية، المنجزة في إطار أدب الملحون، والالتفات إليها في هذا السياق، اعتراف وتقدير، وطمأنة لروح الفقيد، بأنّ خريجي مدرسته، والمهتمين بالبحث في «ديوان المغاربة..» حريصون على متابعة المسير على خطى العميد، الذي وضع لبيت الأدب المغربي قواعده على أسس علمية رصينة.

الزجل في المغرب، «القصيدة»: كتاب وقضية

فمنذ خمس وخمسين سنة، قدم الأستاذ عباس الجراري دراسة أكاديمية بعنوان: «الزجل في المغرب: القصيدة»، لنيل شهادة دكتوراه الدولة من كلية الآداب بجامعة القاهرة في مصر. وتمت مناقشة هذه الأطروحة مساء الجمعة 29 ماي 1969، أمام لجنة علمية مكونة من الأساتذة: الدكتور عبد العزيز الأهواني مشرفا والدكتور شوقي ضيف عضوا والدكتور عبد الحميد يونس عضوا؛ ونال صاحب الأطروحة درجة الدكتوراه في الآداب بمرتبة الشرف.

وتعتبر هذه الدراسة الأكاديمية - في حدود علمنا- أول وأشمل عمل أكاديمي، تناول بالدراسة العلمية، الزجل في المغرب، من خلال قصيدة الملحون. وقد عمل الأستاذ عباس الجراري على طبع هذا العمل، ووضعه بين أيدي الدارسين والمهتمين بأدبنا المغربي- وخاصة أولئك الذين يعنون بالأدب الشعبي - فصدر الكتاب عن مطبعة الأمنية بالرباط، في مارس 1970.

لكن السؤال الذي قد يطرح نفسه اليوم، بعد مرور حوالي نصف قرن على إصدار هذا العمل هو: ما هي الأسباب التي دفعت عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري إلى الاهتمام بالأدب الشعبي منذ تلك المرحلة المبكرة من حياته العلمية؟

لننظر إلى ما قاله الأستاذ المشرف عن هذه الأطروحة، الدكتور عبد العزيز الأهواني: «إن عبقرية الأمة ممثلة في جماهيرها الغفيرة، لابد أن تجد لها متنفسا ومنفذا للتعبير عن مشاعرها، ولابد أن تصطنع لها من أسباب الفنون ما تصور به ذات نفسها، فإذا ما سد أمامها باب، فتحت لنفسها بابا آخر، وإذا كثرت العقبات والعراقيل في طريق، سلكت طريقا آخر، وإذا لم تجد عند الأديب المتفصح الاستجابة الكاملة لذوقها وشعورها وفهمها، بحثت عن الأديب العامي والفنان الشعبي»(1).

فالأدب الشعبي إذن، متنفس لجماهير قد لا تجد عند «المتفصح الاستجابة الكاملة لذوقها وشعورها»، ثم إن الالتفات إلى هذا الأدب في نظر الدكتور الأهواني يشعر»أبناء الجيل الحديث بأن تراثهم الأدبي أكثر غنى وثراء وخصوبة وتنوعا..... فتعود إليهم بذلك الثقة بأمتهم وبماضيها وتراثها»(2).

لقد كان الدكتور عبد العزيز الأهواني يؤمن بأهمية الدراسات التي تتخذ حقل «الأدب الشعبي» مجالا للبحث الأكاديمي، لما يمثله هذا الأدب من أهمية بالنسبة لهوية الأمة، باعتباره خزّاناً لمقومات عديدة لهذه الهوية؛ وهذا ما عبّر عنه الدكتور عباس الجراري في المقدمة التي كتبها لأطروحته يقول(3): «لكل أمة تراث هو عنوان شخصيتها الوطنية، يعبر عن قدرة عقليتها، ويحدد مدى عبقريتها، ويكشف عن قوة إرادتها ويبرز طابعها القومي الأصيل في مجالي الحضارة والثقافة.»

ومن ثم يبدو الاعتزاز بالهوية الوطنية والمنافحة عن أصالتنا، من الحوافز التي دفعت الأستاذ عباس الجراري إلى الاهتمام بالأدب الشعبي، وبقصيدة الملحون بشكل خاص، بيد أن هناك دوافع ذاتية أيضا جعلت الباحث يميل إلى هذا النوع من الأدب الشعبي الرفيع.

فقد كان للنشأة الأولى أثر قوي في هذا الميل إلى أدب الملحون، ذلك أن العلامة عبد الله الجراري، والد الأستاذ عباس، من الولوعين بفن الملحون، فنشأ الفتى وقد تشرب هذا الميل، وارتوى وجدانه، واختزنت ذاكرته ما كان يسمعه من قصائد ملحونية، في جلسات مع والده رحمه الله، وما يتم تداوله بين الشعراء والأدباء المهتمين في مجلسه الأدبي «النادي الجراري»(4). والأمر الثاني الذي شجع الأستاذ عباس الجراري على الاهتمام بالأدب الشعبي بشكل عام، هو ما لاحظه في مصر - حين أقام بها للدراسة -؟ من اهتمام الوسط الثقافي في هذا البلد بهذا النوع من الإبداع، وانصراف دارسين وباحثين كبار إلى

البحث في الأدب الشعبي، أمثال الدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور عبد الحميد يونس، والدكتورة نبيلة إبراهيم والدكتور حسين نصار وغيرهم.

لكل هذه الاقتناعات، خاض الأستاذ عباس الجراري ميدان الكتابة والبحث في الأدب الشعبي، ونشر مقالاته الأولى في هذا الباب - وهو ما يزال في مصر- على صفحات مجلة «دعوة الحق» المغربية، في شكل سلسلة حول «الفلكلور» سنتي 1962 و1963(5). وبعد نشر هذه الدراسة، أثيرت ضجة كبيرة من طرف البعض، احتجوا على وزير الأوقاف يومئذ، لأنه سمح بنشر أبحاث حول «الفلكور» في مجلة يجب في نظرهم -ألا تسمح بنشر مثل تلك الكتابات.

وجاء من يحدث الأستاذ الجراري في تلك الفترة، عن ضرورة صرف النظر عن البحث في هذا النوع من المواضيع، والالتفات إلى أخرى أكثر أهمية وجدية فيما يحسبون.

لقد صادف الأستاذ عباس الجراري العديد من العوائق والصعوبات حينما اختار الأدب الشعبي المغربي مجالا لأبحاثه، ومع الأسف الشديد، أن هذه العراقيل لم تنحصر في الأشخاص بل امتدت إلى المؤسسة الجامعية نفسها التي من المفروض، أن تفسح المجال للبحث العلمي بعيداً عن الحسابات الضيقة.

تحدث الدكتور عباس الجراري عن بعض هذه العراقيل في مقدمة كتابه

«الزجل في المغرب: القصيدة» فقال(6): « وكانت رغبتنا ملحة وأكيدة حين عزمنا على اختيار موضوع رسالة الماجستير، أن نتناول جانباً من الأدب الشعبي، وهو أدب يغرينا ويجذبنا إليه، فنحس له ميلاً غير قليل..... ولكنا لم نحس الجرأة على مواجهة الجمهور المثقف المغربي بمثل هذه الدراسة، لا سيما بعد تجربة سابقة عانينا فيها الكثير.... عدلنا في الماجستير عن الأدب الشعبي، وسجلنا موضوعاً في الأدب المعرب المغربي، متصلاً بعهد الموحدين، أدرنا دراسته حول الشاعر الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي، ولكنا وعدنا نفسنا بضرورة إنجاز بحث الدكتوراه في أحد فروع التراث الشعبي. وها نحن نفي اليوم بهذا الوعد حيث نقدم أطروحة جعلنا موضوعها لوناً من الأدب الذي اتخذ اللهجة العامية أداته».

وامتدت العرقلة إلى الدرس الجامعي، وكانت للأستاذ عباس الجراري رغبة في إدخال الأدب الشعبي إلى مقررات الدراسة الجامعية، فصادف في سبيل ذلك عوائق عديدة، لكن إصراره على فتح هذا المجال أمام طلبة الجامعة بكلية الآداب، جعلته يتوسل بطرق شتى لإدماج، ولو جزء بسيط من هذا الأدب، ضمن مادة الأدب المغربي المقررة في سنوات الإجازة.

وهكذا كان محور درس الأدب المغربي في السنة الرابعة من الإجازة (النظام القديم) بداية سنوات السبعين من القرن الماضي، يتعلق بـ»أدب المقاومة»، وضمنه أدمج الأستاذ الجراري فصلاً للحديث عن المقاومة كما تبدت في الأدب الشعبي، إلى جانب تجلياتها في الأدب المعرب.

كان بعض المعترضين من أساتذة كلية الآداب بجامعة محمد الخامس، يعتبرون الآداب والفنون الشعبية غير جديرة بالبحث، والبعض الآخر يراها محصورة في التسلية والترويح، ويرى طرف ثالث أن العامية من بقايا فترة الانحطاط ورواسب الاستعمار(7). وقد عمد الأستاذ عباس الجراري إلى تفنيد هذه الادعاءات فكتب يقول(8): » ولعلنا أن نؤكد لهؤلاء جميعاً أن الأدب الشعبي جزء ركين من التراث، وأنه تعبير عن مقومات الشخصية الوطنية والذاتية الجماعية، وأن الاهتمام به اهتمام بهذه الذاتية وتلك المقومات، وإنه لو لم يكن كذلك، ما حاول الاستعمار أن يعنى ببعض جوانبه ليتسنى له أن يتسرب من خلالها إلينا ليفهم عقليتنا، ويدرك أعماق ثقافتنا وأصو ل حضارتنا لنسفها من الأساس».

وخَطَّأ الأستاذ الجراري من يعتبر أن الآداب والفنون الشعبية تتمحور أساساً حول التسلية والترويح عن النفوس، بل أكد أن الوظيفة المحورية قومية.

وقد شكل كتاب «القصيدة» باعتباره أطروحة جامعية، حافزاً للجيل الجديد من الباحثين الجامعيين المغاربة، في مستوى دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه

الدولة والدكتوراه الوطنية، ليتخذوا من الأدب الشعبي موضوعاً لرسائلهم وأطاريحهم، ووجدوا في تشجيع عميد الأدب المغربي ما دفعهم إلى اقتحام مجالات متعددة لهذا الأدب، ولم تقتصر مشاريعهم العلمية على ما كتب باللسان العربي، بل امتد إلى التراث الأمازيغي باعتباره أسّا رئيساً للهوية المغربية الاسلامية. وكانت مساهمة الأستاذ عباس الجراري في هذا الباب أساسية لتثبيت أسس البحث العلمي في مجال الأدب الشعبي داخل الجامعة المغربية.

وإذا كان عميد الأدب المغربي قد مال إلى الاشتغال بقصيدة الملحون في أطروحته، كنموذج للأدب الشعبي، فإن مشروعه العلمي في شقه الجامعي، عمد إلى تنويع هذا الاشتغال ليشمل أنماطاً متعددة لهذا الأدب، وإلقاء نظرة على الرسائل والأطاريح التي أشرف عليها توضح هذا المنحى، ومن هذه الأبحاث:

-1الحكاية الشعبية في مراكش للأستاذة مالكة العاصمي.

-2 شعر الملحون في آسفي للأستاذ منير البصكري.

-3المحكيات الشعبية في قبيلة أحمر الهوارية للأستاذ سالم الغزالي.

-4 الشعر الغنائي السوسي للأستاذ عبد الله المعاوي.

-5 رموز الشعر الأمازيغي وتأثرها بالإسلام للأستاذ عمر أمرير.

-6 الأمثال والكنايات العامية المغربية ذات الملامح الخرافية: أشكالها، مضامينها، أسلوب تعبيرها، للأستاذ محمد ضامن.

-7 شاعر الملحون الشيخ أحمد بن رقية الأزموري: دراسة لشعره، للأستاذ عبد الإلاه جنان.

-8الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمو الطالب، للأستاذ عمر أمرير.

-9 الأدب الشعبي في تافيلالت للباحث محمد الشاد علوي.

-10 الصورة الفنية في الخطاب الشعري بين شعر الملحون والروايس للباحثة ثريا بن الشيخ.

ومع مرور الزمن، سيتسع احتضان الجامعة المغربية -التي تعددت مؤسساتها في السنوات الأخيرة- للندوات العلمية واللقاءات الثقافية التي تتخذ من التراث الشعبي المغربي بأشكاله المختلفة، موضوعاً لها، بل إن العديد من الجامعات المغربية تتوفر كليات آدابها، على مختبرات للبحث في التراث الشعبي، جمعاً وتوثيقاً ودراسة، مع عناية ملموسة بتراث المنطقة والجهة التي توجد بها تلك المؤسسة الجامعية.

ووجد أدب الملحون طريقه إلى مقررات سنوات الإجازة، على غرار ما أنجزه الأستاذ الدكتور مولاي علي الخامري بكلية الآداب في جامعة أبي شعيب الدكالي بالجديدة، الذي درَّس متن شعر الملحون على مدى سنوات عديدة، وقد أبرز طبيعة هذه التجربة الجامعية، في بحثه الذي صاغه تحت عنوان: «معطيات تدريس الملحون في الجامعة المغربية»: شارك به في الندرة العلمية التي نظمتها «مؤسسة المهدي بن عبود للبحوث والدراسات والإعلام» في موضوع »شعر الملحون: الواقع والآفاق»، تكريماً لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، أيام 26، 27 ماي 2007 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء.

ولم ينس عميد الأدب المغربي الأستاذ عباس الجراري، وهو يكتب مقدمة «ديوان الشيخ عبد العزيز المغراوي»، أن يشيد بالأبحاث التي أنجزها عدد من الطلاب والباحثين تحت إشرافه في مستويات جامعية مختلفة، من أبحاث الإجازة إلى أطاريح دكتوراه الدولة، فكتب يقول(9): «وإني لأود في هذا المقام: أن أشيد بالدارسين التي تناولوا في بحوث الإجازة موضوعات تتصل بالملحون، ولاسيما الذين أنجزوا رسائل وأطاريح جامعية سعدت بالإشراف عليها، بعد جهد شاق مع الإدارة التي لم تكن تقبل كل ما يتصل بالتراث الشعبي، سواء في الدرس أو البحث».

ويبدو واضحاً أن كتاب «الزجل في المغرب: القصيدة»، لم ينحصر تأثيره في الوسط الجامعي، وفي مجال البحث الأكاديمي المؤسسي، بل امتد تأثيره إلى الساحة الثقافية المغربية ككل، وما كانت تمور به من تيارات خلال سنوات السبعين وما تلاها، وتبدى هذا الأمر في اهتمام العديد من المراكز والجمعيات الثقافية، بالتراث الشعبي المغربي، سواء المكتوب منه أو الشفهي، وخاصة ما ارتبط بالغناء والموسيقى. وهنا لابد من الإشارة أن التراث الشعبي - في غياب مؤسسات علمية رصينة -? يتعرض لنوع من التشويه والتمييع، خاصة وأن بعض الوسائل السمعية البصرية، لا تكون بعيدة عن تقديم صورة شاحبة ومائعة، لشق من تراثنا الشعبي، وهو منحى قد لا يخلو من قصدية. إن الذي يمكن أن يحفظ للتراث الشعبي المغربي عامة، قيمته ولإبداعه الأدبي جماليته، هو هذه الأبحاث الجامعية الرصينة التي ما فتئت تزداد وتترسخ، فضلاً عما أصبحت تعرفه الساحة الأدبية في المغرب من تراكم إبداعي، لاشك أنه متفاوت في مستواه الفني الإبداعي، لكنه سيشكل فيما بعد، أرضية صالحة - بعد التنخيل-? لتحقيق التطور النوعي المطلوب في هذا الباب.

ومن مظاهر الوعي بأهمية ثقافتنا الشعبية، ما انبرت إليه أكاديمية المملكة المغربية في السنوات الأخيرة من إطلاق مشروع «موسوعة الملحون». وهنا سيظهر مرة أخرى دور عميد الأدب المغربي وصاحب كتاب «القصيدة»، لأنه لم يبتعد عن مشروعه العلمي في العناية بأدب الملحون، الذي ما يزال مستمراً بعد مرور حوالي نصف قرن من الزمان على إصدار أطروحته «القصيدة»؛ فقد أسندت إليه رئاسة اللجنة المشرفة على إخراج هذه الموسوعة، ولاشك أن دوره كان كبيراً وفاعلاً، في سبيل تحقيق هذا المشروع الذي انتظره الباحثون والمهتمون طويلاً، نظراً لأهمية جمع هذا التراث الأدبي الشعبي وتدوينه، وهو ما عبر عنه أمين السر الدائم لأكاديمية المملكة المغربية البروفسور عبد اللطيف بربيش، فكتب يقول في التصدير الذي وضعه لأول ديوان يصدر ضمن هذه الموسوعة، وهو ديوان الشيخ عبد العزيز المغراوي: «اهتمت أكاديمية المملكة المغربية، منذ نشأتها بالتراث المغربي باعتباره عنصراً من عناصر الهوية، وأساساً للوعي بالذات الوطنية. وإذا كانت بعض مصالح الدولة تهتم بالحفريات بحثاً عن معالم تاريخنا القديم، وترميم البنايات الأثرية الباقية لكيلا تفنى، فإننا في الأكاديمية نسعى إلى إحياء ما اندثر من التراث الشفهي والمكتوب، وتصحيح ما لحق به من تشويه وخلل بحكم التقادم»(10). ويشرف الأستاذ عباس الجراري على هذا العمل »بتوجيهاته، على منهجية العمل من بدايته إلى إعداده للطبع»(11). وقد استطاعت اللجنة المشرفة أن تصدر إلى حدود نهاية سنة 2012 الدواوين التالية:

1- ديـوان الشـيـخ عـبـد الـعـز ين المغراوي، سنة 2008.
2- ديوان الشيخ الجيلالي امتيرد، سنة 2008.
3- ديوان الشيخ عبد القادر العلمي، سنة 2009.
4- ديـوان الشيخ محمد بن علي ولد أرزيـن، سنة 2009.
5- ديوان الشيخ التهامي المدغري، سنة 2010.
6- ديوان الشيخ أحمد الكندوز، سنة 2011.
7- ديوان الشيخ أحمد الغرابلي، سنة 2012.
8- ديوان الشيخ إدريس بن علي السناني، سنة 2012.

وقد وضع عميد الأدب المغربي مقدمة لكل ديـوان، والـحـق أنها أكبر مـن أن تسمى مقدمات، بل هي أبحاث دقيقة، بسط الأستاذ الجراري من خلالها، جملة من القضايا والظواهر التي يطرحها تدوين النص الشعري الملحوني، بدءاً من التسمية إلى قضية تدوين النص، فإشكالية النحل وصناعة الدواوين ثم السرقات، أو ما يصطلح عليه عند أهل الملحون ب«الـسـلاخ»، وتـصـرف الـرواة بالإضافة والحذف، يشفع كل ذلك بترجمة الشاعر صاحب الديوان فحديث عن شعره، مرفقاً بمجموعة من المصادر والمراجع التي أوردت بعض نصوصه أو شذرات عن حياته.
وكان الأستاذ عباس الجراري، قد تطرق في الإصـدار الأول لهذه الموسوعة، والمتعلق بديوان الشيخ عبد العزيز المغراوي، إلى بسط خطة العمل، ومنهج الـتـدويـن، مع الإشـادة بأعضاء اللجنة المشرفة على هذا المشروع العلمي، وبالباحثين الشباب الذين اتخذوا من أدب الملحون مجالاً لدراستهم، بل انصرفت الإشادة إلى كل من ساهم في إخراج هذا العمل أو إغنائه بملاحظات أو إبداء رأي.

وهـكـذا شكل إشـراف الـدكـتـور عباس الجراري على «موسوعة الملحون» استمرارا لمشروعه العلمي المرتبط بـالأدب الشعبي المغربي، عامة، وبـأدب الملحون على وجه الخصوص.

وإذا كانت أطروحة «الزجل في المغرب» قد أسست للبحث الأكاديمي في الجامعات المغربية، فإن طموح الأستاذ عباس الجراري يرمي إلى أن يصبح الأدب الشعبي المغربي من اهتمامات فئة عريضة، بل ظل يتطلع إلى تقديمه إلى الناشئة منذ المراحل التعليمية ما قبل الجامعة، وقد عبّر عن هذه الرغبة حينما سئل في أحد الحوارات التي أجريت معه وقال سائله(12) : »من بين ما يحسب لكم، اهتمامكم بـتـدريـس الأدب الـشـعـبـي، إلـى أن أصبح تخصصاً قائم الذات في الجامعة، تمخضت عنه كتب وأبحاث عديدة. هل تتصورون إمكان دمج هذا الأدب في الكتب المدرسية، وكيف يمكن استثماره في إكساب المتعلمين كفايات معينة ؟

فجاء جواب الأستاذ الجراري كالآتي: «نعم يمكن إدماج أدبنا الشعبي في الكتب المدرسية بل يجب القيام بهذا الإدماج وفق التوجه المحلي المشار إليه، ثم بُعد وطني بعد ذلك، لأن من شأن تعرف هذا الأدب خاصّة، والأدب الشعبي عامة، أن ينمي المعرفة بحقيقة الذات، ويقوي روح المواطنة، ويزيد في الإحساس بالهوية وما يشاكلها من قيم ومقومات. ومن أجل هذا، ونظراً لما يتميز به المغرب من تعدد وتنوع، فإني أرى ضرورة الاهتمام بالجهة وما تزخر به من تراث وإعطاء حيز لذلك من المقررات الدراسية».

لقد رفع الأستاذ عباس الجراري اهتماماته العلمية بالأدب الشعبي إلى مستوى القضية، وراح يدافع عنها على مدى نصف قرن من الزمان، منذ بداية سنوات الستين إلى اليوم، وما يزال؛ ومن ثم فإن كتابه »القصيدة» كان دفاعاً عن قضية جوهرية في تاريخ الثقافة المغربية المعاصرة، هي قضية الهوية الوطنية، وهو الذي يرى أن «لكل أمة تراث هو عنوان شخصيتها»(13).

وكتاب »القصيدة» من وجهة أخرى، جسد ذلكم الصراع الذي عرفته الساحة الثقافية المغربية خلال سنوات الستين وأوائـل السبعين، بين المنافحين عن الأدب الشعبي والمناهضين له، وهو صراع لم يقتصر على المضايقات والعوائق التي وضعها بعض الأفراد في سبيل النهوض بهذا اللون من الثقافة المغربية، بل انتقل الصراع إلى المؤسسة الجامعية، وتصدّى بعض الجامعيين - عن جهل أو غير ذلك- لمقاومة أدب مغربي

هو جزء مما «صنعه الشعب وهو يصوغ الحضارة بقوة عقله وقلبه، ويكتب التاريخ بمداد عرقه ودمه»(14).

من ثم، فإن هذه الأطروحة يوم كتبت، لم تكن عملاً علمياً فحسب، بل كان العمل نضالاً من أجل قيم فكرية أصيلة، وثوابت حضارية أثيلة؛ أطروحة كتبت بشعور وطني عميق.

ورغم كل الصعاب، تحقق الكثير ما طمح إليه عميد الأدب المغربي، وعبر عنه في مقدمة كتابه حين قال(15): »وحسنا أننا فتحنا باباً جديداً للبحث الأدبي في المغرب، وأننا بذلنا في سبيل ذلك جهداً يشهد الله أنه كان مخلصاً ومتواصلاً، وأملنا أن يجد الدارسون من زملائنا الشباب في هذه الرسالة ما يغريهم بمواصلة البحث من أجل إحياء التراث بجميع أنواعه، وأن يجد فيها المسؤولون عن جامعة محمد الخامس، ما يقنعهم بضرورة إدراج أدب المغرب الشعبي في مقررات كلية الآداب، إلى جانب أدبه المعرب الذي نتحمل عبء تدريسه بها».

لقد استوى الأدب الشعبي في رحاب الجامعات المغربية، وضمنه «العلم الرقيق»(16)، بعد أن كانت الرغبة في أن يفسح له في جامعة واحدة؛ وغدَت دواوين الزجل تتابع سنة بعد أخرى، وامتلأت السوح، وتلقف الباحثون الأكاديميون الشباب «لكلام»(17)، بعد أن أغرتهم «القصيدة»، ووطدوا دعائم التأسيس وأضافوا، وغيّر بعضهم موقع الرؤية، ليقتحم أعماقاً جديدة داخل النص الملحوني، وعبّر عميد الأدب المغربي عن إعجابه واعتزازه بهذا التطور حين قال(18) «لم يكن غريباً بعد أن أخذ الملحون موقعه في مقررات بعض الجامعات وما ينجز فيها من دراسات، أن يبرز فيها، وفي المراكز المعنية بالتراث، باحثون تسنى لي - بكثير من الفخر والاعتزاز ?- أن أقف على بعض ما قدموا من عروض عميقة في هذا المجال برؤى جديدة ومناهج متطورة ».

لكن، وقد عاد الدكتور عباس الجراري ليشرف على «موسوعة الملحون» التي تصدر أجزاءها تباعا، أكاديمية المملكة المغربية، ظل هناك سؤال يردده الباحثون والمهتمون بأدب الملحون: لماذا لم يعمد عميد الأدب المغربي إلى تقديم »القصيدة» في طبعة ثانية، في الوقت الذي يتعذر على الجيل الجديد من الباحثين، الحصول على الكتاب في طبعته الأولى التي نفذت منذ زمن طويل ؟ إنه السؤال الذي تكرر كثيراً في العديد من اللقاءات الثقافية والندوات العلمية، وبإلحاح كبير ؟!

قد يسعف الحال، ويتحقق الطلب، وتزيد روح الراحل اطمئنانا.....

هوامش:

(1) الزجل في المغرب: القصيدة، الدكتور عباس الجراري، تصدير بقلم الدكتور عبد العزيز الأهواني، ص ه، و، ز.
(2) نفسه.
(3) الزجل في المغرب: القصيدة، المقدمة، عباس الجراري، ص، 1.
(4) أسس العلامة عبد الله الجراري هذا المجلس الأدبي، »النادي الجراري»، سنة 1930.
(5) جمع الدكتور عباس الجراري هذه المقالات ونشرها ضمن كتابه «من وحي التراث».
(6) الزجل في المغرب: القصيدة، المقدمة، ص، 1.
(7) أنظر، الزجل في المغرب: القصيدة، ص، 3.
(8) نفسه، المقدمة، ص، 3.
(9) موسوعة الملحون: ديوان الشيخ المغراوي، المقدمة، عباس الجراري، ص، 46.
(10) ديوان الشيخ المغراوي، تصدير عبد اللطيف بربيش.
(11) نفسه.
(12) مجلة «عيون تربوية ثقافية»، العدد الأول 2005، مجلة سنوية تصدرها نيابة وزارة التربية الوطنية، والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، قطاع التربية الوطنية بالمحمدية، حوار العدد مع الدكتور عباس الجراري، أنجزته رئاسة التحرير: ذ.السعيد بنفرحي، وذ.خالد بلقاسم.
(13) الزجل في المغرب: القصيدة، ص، المقدمة؛ ص،1.
(14) من وحى التراث: عباس الجراري، المقدمة، ص، 8.
(15) الزجل في المغرب: القصيدة، المقدمة، ص17.
(16) من التسميات التي تطلق على الملحون.

المصطفى كليتي

العلامة عباس الجراري ثراء عطاء

قال الله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »

التوبة / 105

لا قياس للإنسان أفضل من عمله .

رسول حمزتوف

فاضت روح المفكر والأكاديمي عباس الجراري يوم السبت 20 يناير 2024 وهو من مواليد الرباط عام 1937، وينحدر من قبيلة ولاد جرار من تزنيت جهة سوس ماسة بالجنوب المغربي، ويعتبر والده عبد الله الجراري من رواد الحركة الثقافية المغربية، تشرب أول مدارك العلم والعرفان في الكُتاب، وما فتىء أن التحق بمدرسة الأعيان بثانوية الليمون وبعد ذلك التحق بثانوية مولاي يوسف، كان لوالده الجليل فضل تعليمه وتوجهيه، فأدرك تعليم اللغة العربية ومجالات شتى في العلوم الإسلامية، وعمق دراسته بجامعة القاهرة بمصر ونال شهادة الدكتوراه سنة 1969، وبجامعة السوربون بفرنسا حصل على دكتوراه ثانية، تقلد عدة مناصب في مساره المهني، تخلى عن الدبلوماسية مفضلا شرف مهنة التدريس في جامعة محمد الخامس وفي جامعة ظهر المهراز بفاس، تم انتخابه رئيسا للشعبة العربية وآدابها عند تأسيسها في كلية الرباط، عينه الملك الراحل الحسن الثاني أستاذا بالمدرسة المولوية، أسندت له عدة مناصب عليا، حيث كان عضو بأكاديمية المملكة المغربية، وعضوا بالمجلس العلمي الإقليمي لولاية الرباط وعينه الملك محمد السادس مستشارا له .

بالإضافة إلى ذلك تولى عدة مناصب ذات صبغة محلية ودولية، وتولى عدة مسؤوليات في محافل علمية واتحادات وهيئات عربية ودولية، من بينها نائب رئيس مجلس جمعية العلاقات المغربية الأمريكية، تولى عضوية مجمع اللغة العربية في القاهرة ودمشق، خبير متخصص لدى المنظمة الإفريقية والمنظمة العربية (الألسكو) والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسسكو)، وقد كان من أكبر المساهمين في حوار الأديان ونبذ التطرف، وحث على تحالف الحضارات وتكاملها والسعي إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية، وهو الخطيب المفوه وقد ألقى عدة دروس في محفل الدروس الحسنية التي يلتئم حولها علماء من مختلف دول العالم، توج مساره العلمي والأدبي بعدة جوائز وأوسمة وطنية ودولية .

نهض عباس الجراري بالحياة الثقافية والفكرية والأدبية، وكان علامة بارزة في النبوغ المغربي وتتلمذ على يديه أجيال من الباحثين الذين ارتووا من علمه الغزير، وتأسوا بدماثة أخلاقه ورفعة تعامله الإنساني الرفيع، فقد كانت سماحة الأب الراعي والمهذب الراقي تطغى على صفة الأستاذ المقر المتحكم، مما جعل صلته بطلبته ومريديه متواصلة ومتجددة، قوامها المحبة المتبادلة وقد ورث عن والده عبد الله الجراري « نادي الجراري « الذي ينظم لقاءات وحلقات علمية دورية، تساهم فيها فعاليات تنتمي إلى عالم الأدب والفكر، وساهم النادي بحظ وفير في إثراء المشهد الثقافي بالمحاضرات والمناظرات وبمؤلفات من وضع رواد النادي، ورفد النادي المكتبة المغربية والعربية بعدة بحوث وإصدارات وازنة، بل سعى ـ هذا النادي ـ العتيد إلى إقامة جائزة محفزة على الإنتاج الفكري والأدبي، وعزز النادي الحياة الثقافية والمشهد الأدبي المغربي لمدة تصل لخمسة عقود أو تزيد .

عباس الجراري، سقاه الله من حياض النعيم، مثقف ملتزم وباحث معطاء ورجل مواقف وقيم نبيلة ناضل طوال عمره الجميل في واجهات متعددة ومختلفة .

وترك عدة مؤلفات نسوق منها: عبقرية اليوسي، معركة وادي المخازن في الأدب المغربي، خطاب المنهج، موشحات مغربية، من وحي التراث، وحدة المغرب المذهبية، الثقافة من الهوية إلى الحوار، الحوار من منظور إسلامي، قضايا للتأمل برؤية إسلامية، قضية فلسطين في الشعر المغربي في حرب رمضان، ثقافة الإصلاح وإصلاح الثقافة، لا تطرف ولا إرهاب في الإسلام، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، القصيدة: الزجل في المغرب، رحيق العمر ...

جهود مكثفة أرساها الأستاذ عباس الجراري رحمه الل، في مضمار البحث العلمي مع إبراز الأنسية المغربية، وخصوبة التعدد اللغوي الذي تتسم به الخصوصية المغربية، والوقوف مليا حول الثقافة الشعبية وفي صدارتها القصيدة العامية الزجلية، وفي صداتها قصيدة الملحون التي كانت باكورة انشغاله في رسالة الدكتوراه حيث تمت مناقشتها كأطروحة في جامعة عين شمس بالقاهرة، وقد حفر طويلا ـ أستاذنا الباحث ـ في القصيدة الملحونية، وكان مرماه تناول التراث المغربي والهوية المغربية، بكون التراث عامة والقصيدة الملحونية خاصة تعبر بجماليتها وخصوصيتها عن نبض المجتمع، فضلا عن باقي فنون القول والتعبير، ورأى في الملحون مدونة ثرية وخصبة لكل دراسة وتقصي، وأنبرى في دراسة القصيدة الملحونية وفق منهج ورؤية علمية حصيفة ودقيقة، تناولت شعر الملحون وتعمقت فيه دراسة وبحثا .

عباس الجراري أسس للدرس الأدبي المغربي بالجامعة المغربية، وكرس الاهتمام بالتراث المغربي تحقيقا ورصدا ومتابعة، وساهم بشكل لافت في تقريب الأدب المغربي وإخراجه من العتمة وأقماط الإهمال والنسيا،ن إلى معارج النور والعرفان بلغة النقد والتقريب وجلال الوضوح والبيان، وارتقى به إلى مصاف الآداب العربية والإسلامية والعالمية، وأجلى نفائسه ودرره، وقد أفرزالإهتمام بالتراث المغربي عند الدكتور عباس الجراري ظهور عناية أوسع بالأدب المغربي الشعبي بشتى مظاهره وقضاياه، حيث أضحى محط بحث كما أن نفس الأمر حظيت به الثقافة الأمازيغية عند أستاذنا الكبير عباس الجراري، فقد كان صوتا لهذه الثقافة المهمشة وضميرا حيا لنبض الثقافة الشعبية الضاربة جذورها في عمق التاريخ .

تجربة الباحث الأكاديمي المدقق والمثقف الواعي والمدرك والشاعر مرهف الحس، تفجرت في منجز العلامة عباس الجراري، علامة ينتمي بصدق لمغربه وحضارته وتطلأعته، ضمن المرحلة التي عاشها في مراحل حياته وستبقى عنوانا بارزا لأطلس مغربي نحت اسمه وعمله بقوة وإصرار في تاريخ مغربي يتجدد بتجدد الأجيال والآمال الوثابة دوما إلى الأمام ..

أوْجُه التّعالق بين الشّعريّ والسّياسيّ على عهد بَني أُمَيّة

فريد أمعضشو

إن ارتباط الشعر العربي بالسياسة، أو بالإيديولوجيا، يعود إلى زمن مبكر جدا من تاريخ الأدب العربي. وقد أطلق النقاد على هذا الضرب الشعري اصطلاح «الشعر السياسي». والملاحَظ أن هذا الشعر برز، بشكل لافت للنظر، في عهد بني أمية، الذي عُرف، إلى جانب الحزب الأموي «الحاكم»، ظهور مجموعة من «أحزاب المعارَضة»، التي ناوَأت سياسة الأمويين، ورفضت توجهاتهم، ودخلت معهم في معارك شديدة قولا وفعلا. ولم تنحصر الحروب بين هذين القطبين فقط، بل إن حروبا كثيرة كانت تنشب فيما بين هذه الأحزاب المعارضة نفسها. ولا ريب في أن هذه الوقائع والحروب قد رافقها شعر غزيرٌ، كان يتفوّه به الشعراء في الانتصار لأحزابهم، ومُهاجاة الأحزاب الأخرى ومعارضتها. وقد حفظت لنا المصادر ذخيرة مهمة من هذا الشعر، على الرغم من أن ما ضاع منه قد يكون أكثر وأغزر.

ويتفق الدارسون على أن الأحزاب الرئيسة التي كانت تعارض الحُكم الأموي ثلاثة، وهي: الخَوارج، والشيعة، والزبيريون. وستسعى هذه الورقات المعدودات إلى الوقوف عند كل حزب على حدة، مبرزة مبادئه وأهمَّ فرقه وظروف نشأته وامتداداته، ومبيِّنة الشعر المرافِق لكل منها ومميزاته وأهم رجالاته وما إلى ذلك، ومستفيدة، في الأساس، من جهود عدد من دارسينا الذين بحثوا في هذا المجال، ولاسيما الدكتور عباس الجراري رحمه الله (1937 - 2024م)؛ صاحبُ كتاب «في الشعر السياسي» الذي هو، في الأصل، مجموعة محاضرات، كان قد ألقاها على طلاب السنة الأولى - شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، خلال الموسم الجامعي 1967/66م.

الخَوارج

ظهر الخوارج مباشرة بعد مَوْقعة صفّين الشهيرة (37هـ)، معلنين خروجَهم عن طاعة علي كرّم الله وجهه، الذي قبل ما يسمى «قضية التحكيم»، التي انتهت - كما هو معلوم - بانتصار معاوية رضي الله عنه، وتوليه الحكم... وكان يقودهم، إبّانئذٍ، زعيمُهم عبد الله بن وهب الراسبي.

وتطلق على الخوارج عدة أسام؛ منْ مثل «المُحكِّمة» (سُمّوا بذلك لرفضهم تحكيم البشر في قضية التحكيم المعروفة، وقولهم «لا حكم إلا لله»)، و«الحَرُورية» (سُمّوا بذلك نسبة إلى كورة «حروراء» القريبة من الكوفة، والتي توجّهوا إليها من فور خروجهم عن علي)، و«الشُرَاة» (سُمّوا بذلك لكونهم شروا (باعوا) أنفسَهم الله كما يقولون).

ولا شك في أن لكل حزب مبادئ وثوابتَ يؤمن بها، وينافح عنها، ويقاتل في سبيلها. ومن هذا المنطلق، حاول د. عباس الجراري، في كتابه المومإ إليه قبلا، أن يرصد مبادئ الخوارج انطلاقا من استقراء جملة من المَظانّ والأشكال الأدبية الخوارجية(1)، وإنْ كان هو نفسُه يقرّ بصعوبة هذا الأمر(2). وأبرز هذه المبادئ ما يأتي:

- الإقرار بصحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان في سنيّه الأولى خاصة، والإقرار أيضا بصحّة خلافة علي، غير أنهم يُخطئونه لقبوله واقعة التحكيم، وإنْ كانت بعض المصادر تؤكد أن الخوارج هم الذين أرْغموا عليّا على قبول هذه الواقعة!

- تكفير الحَكَمين المُنَصَّبَيْن في واقعة التحكيم من قبل كل من عليّ ومعاوية، وهما أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص.

- الطعْن في أصحاب الجَمَل (طلحة والزبير وعائشة)، وتكفيرهم جميعا.

- تكفير العبّاسيين؛ لعدم صحة خلافتهم، والدعوة إلى محاربتهم.

- تكفير معاوية بن أبي سفيان والأمويين عامة، والدعوة إلى مُقاتلتهم.

- وجوب الخروج عن الإمام الجائر، والقول بتساوي المسلمين بخصوص تولي الخلافة؛ بمعنى أن كل من توافرت فيه الشروط والمؤهلات، فهو أهْل لهذه الخلافة، وإنْ لم يكن عربيا.

وقد اشتهر الخوارج بمجموعة من الأخلاق والصفات؛ مثل التعصُّب الشديد لعقيدتهم، والإخلاص الصادق لمبادئهم. ولهذا، رأى المستشرق نيكلسْون (R. A. Nicholson) أن الخوارج كانوا مَضربَ المثل في الدفاع المسْتميت عن معتقدهم السياسي وآرائهم؛ ومثل التمسك القوي بالقرآن وأحكامه، وعدم التساهل في أمور الدين. وقد انعكس هذا الأمر على حياتهم، وعلى أدبهم بصورة جليّة. ومن تلك الصفات، أيضا، عدمُ التورُّع عن رَمْي كل مخالفيهم بالكفر، وتشديد التعامل معهم... إلخ.

إن الخَوارج ليسوا فرقة واحدة، بل هم فرقٌ متعددة. قال عبد القادر البغدادي (ت 429هـ): «... ثم اختلفت الخوارج - بعد ذلك - فيما بينها؛ فصارت مقدارَ عشرين فرقة، كل واحدة تكفّر سائرها»(3). ولعل أهمها الفرق الآتية:

- المحكّمة الأولى؛ أي الخارجون الأوّل عن طاعة علي مباشرةً بعد موقعة صفين.

- الأزارقة: وهم أتباع نافع بن الأزرق الحَنَفي، المُكنّى «أبا راشد»، والمتوفى سنة 65 للهجرة. ويعد الأزارقة أكثر فرق الخوارج عُدّة وعددا وسلطانا من وجهة، وأكثرَهم تطرُّفا من وجهة أخرى. لذا، فقد حاربتْهم الدولة الأمَويّة بشكل أقوى وأعنف بالمقارنة مع الفرق الأخرى.

- النَجَدات: وهم أتباع نَجْدة بن عامر الحنفي. ومن مبادئ هذه الفرقة أنها تُجيز القعود عن القتال لغير القادرين عليه.

- الإباضيّة: ورائدُها هو عبد الله بن إباض التميمي، وهي أقلُّ الفرق الخوارجية تطرُّفا. ولذلك، استطاعت أن تعيش طويلا، وتستمرَّ في الحياة، بخلاف فرق الخوارج الأخرى، التي شُنّتْ عليها حروبٌ مُبيرة متوالية، من جهات متعددة.

- الصُّفرية: وهم أتباع زياد بن الأصفر، ويقال لهم - كذلك - «الزيادية». وقد أطلق عليهم الاسم الأول؛ لصُفرة ألوانهم من كثرة الصيام والقيام، كما تذكر بعض المصادر («رغبة الآمل» مثلا).

-العجاردة: وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد...

تلكم، إذاً، فرقُ الخوارج الكبرى، وفي كل فرقة نجد مجموعة من الفرق الخوارجيّة الصغرى. فضمن العجاردة، مَثَلا، عددٌ من الفرق؛ كالخازمية، والشعبية، والمعلومية، والمجهولية، والمعبدية، والرشيدية، والمكرمية، والحمزية، والإبراهيمية، والواقفة، والميمونية.

لقد كان للمذهب الخوارجي امتداد وانتشارٌ خارج مركزه؛ إذ وصل إلى مناطق قصيّة جدّا في الاتجاه الغربي. وقد توقّف المرحوم د. الجراري عند انتشار هذا المذهب في المغرب الأقصى بخاصة؛ فأشار إلى أنه قد وفدت على المنطقة فئات من الخوارج (الإباضية والصفرية) إثرَ انهزامهم في المشرق العربي. وتذكر المصادر القديمة أن هذا المذهب لقي تَرْحابا كبيرا من قبل البربر (الأمازيغ)؛ لما ألفَوْه فيه مَن «ديمقراطية» ومساوَاة طالما افتقدوها في كثير من الفاتحين العرب.

ويؤكد الدارسون أن الخوارج كانوا

كثيري الشعراء، غزيري الأشعار، وأنّ شعرهم رافقهم في حروبهم، وَعبّر عن مبادئهم، وصوّر بطولاتهم، وأشاد برجالاتهم. وقد لاحظ عباس الجراري أن هذا الشعر - على وفرته - يمتاز بجملة من الخصائص والميزات؛ بعضها شكلي، وبعضها موضوعي، وبعضها يتمحّض للشكل والموضوع معا. وكان يستدل بما يناسب من الشعر الخوارجي على كل خاصية خاصية. فمن خصائصه الشكلية أن جُلّه عبارة عن مقطّعات وقصائد قصيرة، وأن كثيراً منه منظومٌ على نَوْل بحر الرَّجز. كما يتسم بالوحدة الموضوعية؛ نتيجة سيطرة المضمون السياسي عليه، وتحللها من المقدمات التقليدية المعهودة... ومن خصائصه الموضوعية الالتزام الكلي بالعقيدة والمبادئ الخوارجية، والتحلي بالصدق والإخلاص، والدعوة إلى الرفض والحث على الخروج، والزهد المطلق في جميع ملذات الدنيا ومُتعها، و بُروز نبرة الحزن والبكاء بقوة فيه، والإقبال على ساح الوَغى ببسالة منقطعة النظير؛ أمَلاً في الاستشهاد والظفر بما أعدَّه اللهَ للمُسْتَشْهد في سبيله، ورسْم الصورة المثالية للإنسان الخوارجي، والتزام وحدة الموضوع، وبساطة الجانب المذهبي وعدم اللجوء إلى التأويل والاستنباط؛ نتيجة عدم تأثرهم بألوان الثقافة الجديدة، إلخ.

إن الشعراء الذين كانوا يَنْضَوُون تحت لواء حزب الخوارج من الكثرة بمكان. والملاحَظ أن بعضهم مشهور، على حين أنّ عديدين منهم مغمورون، لا يكاد يعرفهم إلا القليل من الناس. ومن أعلامهم عمْران بن حطان البكري الصُّفري، والطرمَّاح بن حَكيم الطائي الأزْرقي، الذي كان صديقا حميما للكُمَيْت الشيعي، على الرُّغم من اختلاف مذهبَيْهما؛ كما يذكر ذلك صاحب «الأغاني». ومنهم أيضاً قَطَريّ بن الفُجَاءَة الأزْرَقي (جعونة بن مازن)، الذي كان من أبرز قوّاد الخوارج وزعمائهم السياسيين... ومن يتصفح أشعار هؤلاء، يلمس - من كثب - أنها مكرَّسة - في المحل الأول - لخدمة عقيدة الخوارج السياسية؛ من حيث كونها تعبّر عن آرائهم في مختلف الأمور، وتقف في وجه خصومهم، وتَشيد ببَسالة الرجل الخوارجي وإقدامه، وتَرْثي قَتْلاهم في الحروب، وتستنهض هِمَمَ الخوارج، وتستحثهم على الخروج...

الشيعة

يرى بعضُهم أن الشيعة حزبٌ ظهرت نواتُه الأولى مباشرةً بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واختلاف المسلمين حول مَنْ يخلفه؛ بحيث كانت هناك طائفة من الصحابة تؤمن بأحقّية عليّ في خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وذلك استناداً إلى بعض الأحاديث، وإلى كوْن الرسول قد أوْصى لعليّ بالاستخلاف. والواقع أن الشيعة - بمعناها المذهبي المعروف - لم توجَد إلا بعد وفاة علي كرم الله وجهه... ويُعرَف الشيعة بأسماء أخْراة؛ كالعلويين، والطالبيّين، وآل البيت. وللحزب الشيعي مبادئ ينطلق منها، ويذود عنها. وَهي تتفاوت بتفاوُت الفرق الشيعية نفسها، ولعل أبرزها ما يأتي:

- العصْمة؛ إذ إن الإمام - في نظر الشيعة - شخصٌ مقدَّسٌ، معصوم من الخطإ، مُصيب في كل ما يصدُر عنه من قول أو فعل. والواقع أن هذا المبدأ دخيل على الحزب الشيعي، تسرَّب إليه من الموالي الفُرْس، الذين كانوا يشكّلون نسبة مهمة داخل هذا الحزب؛ الأمرُ الذي دعا المستشرق الهولندي رينهارت دوزي (R. Dozy) إلى اعتبار الشيعة حزبا فارسيا.

- المَهْدَوية؛ ذلك بأن الشيعيّين كانوا يؤمنون بالمهدي؛ الإمام المُنتظَر، الذي سيأتي؛ فيملأ الأرض عدْلا، كما مُلئت ظلما.

- الرَّجْعة: ومعناها الأوْبَة إلى الدنيا بعد الممات، وقد اختلقها عبدُ الله بن سبإ، اليهودي الأصل، حين قال برجْعة محمد وعلي وغيرهما من الأئمة الشيعة، واستغرب كيف أن الناس يُصدّقون رجوع عيسى عليه السلام، ويكذّبون رجوع محمد وعلي. وزعم ابنُ سبإ وأتباعُه أن عليّا حي لم يمت، وأنه يجيء في السحاب، وأن الرعد صوته، والبرق سوْطه، وأنه سينزل - بعد ذلك - إلى الأرض؛ ليملأها عدلا، كما ملئت جوْرا.

- التقيّة: ويُقصد بها المداراة، وإظهار غير الحقيقة. وقد أخذ بها الشيعة قولا وممارسة. وكانت تبيح للشيعيّ إخفاءَ عقيدته المذهبية، بل يمكن له أن يصل إلى حدّ إظهار الكفر ظاهرياً؛ اتقاءً للشر، ودفعاً للمَكاريه، وضماناً للتكسُّب، ولاسيما إذا علمْنا أن شعراء الشيعة كانوا يَرْتزقون بسلوك مسلك التقية. ويرى المستشرق كولدزيهر (I. Goldziher) أن الكميت هو أول من استعمل كلمة «التقية» بمعناها الاصطلاحي.

وبمُكْنَتنا أن نتحدث عن فريقين كبيرين داخل الحزب الشيعي، وهما:

- الإمامية: وتقول هذه الفرقة بإمامة علي بعْدَ الرسول، صلى الله عليه وسلم، وتأتي بنصوص عديدة لإثبات قولها وتعْضيده. كما أنها تتبرّأ من أبي بكر وعمر وعثمان، وتراهم غاصبين للخلافة. وتعتقد الإمامية أن الإمام إنسانٌ، ولكنه ينطوي على جوهر نوراني إلهي، ولجه من طريق الحُلول الجزئي. والإمامية فرق عدة؛ أهمها «الإسماعيلية» (ساقوا الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل)، و»الاثنا عشرية» أو «القطعية» (ساقوا الإمامة من جعفر إلى ابنه موسى، وقطعوا بموسى، زاعمين أن الإمام بعده سبْط محمد بن الحسن، الذي هو سبط علي بن موسى الرّضا)، و»الكيسانية» (يَرَوْن أن محمّداً بن الحنفية لم يمُتْ، وأنه حي يقيم بجبل رَضْوَى، في موضع محروس بعناية تامة. ويقولون إن الدين طاعة رجل، وإن الإمام ظل الله في أرضه، وهو بذلك ليس كسائر البشر؛ لما فيه من قبَس إلهي يَعْصمه، ويجعله وارث علم الرسُول؛ ظاهره وباطنه).

- الزَّيْدية: وهم أتباع زيَد بن علي بن زيَن العابدَين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ويعدّون أقرب الفرق إلى أهل السُّنة، وأكثرهم اعتدالا. ولعل ذلك راجعٌ إلى تتلمُذ زعيمهم زيد لواصل بن عطاء المعتزلي (ت 131هـ). ويمتازون من الفرق الشيعية الأخرى بعدم القول بأن النبي يورَث، وبعدم المغالاة في تقدير أئمتهم، بل يرون أن الإمام رجل فاضل عالم زاهد سخي شجاع تجب طاعته، ومَنْ عاداه فهو مخلد في النار إلى أن يتوب. كما أنهم يُجوِّزون إمامة المفضول مع قيام الأفضل، ولا يقولون بالرَّجْعة، ولا بالتناسُخ، ولا بزواج المتعة، ولا بشيوع الزواج، ولا بالمهدي المنتظر، ولا بالتقية... ومن فرق الزيدية «الجارودية»، و»السليمانية»، و»البُترية»...

ولم ينحصر المذهب الشيعي في الكوفة؛ حاضرة الشيعيين فقط، بل امتدّ إلى عدة مناطق كالمذهب الخوارجي. وقد وصل إلى بلاد المغرب، ووُجد له أنصار كثُر فيه، كانوا يُخلصون الحبَّ لآل البيت كافة. ولنا في الترحيب الذي خصّه المغاربة للمولى إدريس الأول، إثر فراره من المشرق سنة 169هـ، على عهد الهادي العباسي، خير دليل على ذلك.

وإذا كان أكثر شعر الخوارج قد ضاع، فإن معظم شعر الشيعة - بالمقابل - قد وصلنا، سواء في مصنفات خاصة بهم، أو موزّعاً بين بطون بعض أمَّات كتب التراث الأدبي العربي؛ ذلك بأن الشعراء الشيعيين احتفظوا، طوَال عصر بني العباس (عصر التدوين)، بكثير من قواهم المادية والمعنوية؛ باتخاذهم مبدأ التقية المذكور آنفاً، وبازْدلافهم من الأمراء والسلاطين العباسيين؛ الشيءُ الذي ظاهَر على حفظ أشعارهم، وروايَتها، وتدْوينها. ويتسم الشعر الشيعي بعدة خصائص مضمونية وشكلية، منها:

- الالتزام بفكرة الحزب؛ أي إن الشعر الشيعي يسير في اتجاه التعبير عن حب آل البيت بعُمق وبصدْق، ويدافع عن مبادئ حزب الشيعة وعقيدته السياسية.

- القوة والحماس؛ ذلك بأن القصيد الشيعي يَفيض قوة وحماسة في الدفاع المُستميت عن مبادئ حزب الشيعة، وتوجُّهاته السياسية.

- الجدل والاحتجاج؛ إذ إن كثيراً من شعر الشيعة يَعْمد إلى المُحَاجَّة، ومقارَعة الخصوم باللجوء - أحياناً - إلى الفكر والمنطق، بعيداً عن المَشاعر والعواطف.

- معارضة الحكم القائم، والنقمة على خُصومهم.

- التأثر بالجانب الديني: ويظهر ذلك - بصورة أجْلى - في تناصِّ الشعر الشيعي مع الآي القرآنية كثيراً.

- طغَيان نبْرة الحزن والبكاء على زعمائهم، الذين كانوا يسقطون الواحد تلوَ الآخر.

- جزالة الأسلوب، وسلاسته، ووضوحه، ونُبُوُّه عن الصنعة والزخرفة اللفظية. ولا شك في أن تأثر شعر الشيعة بأسلوب القرآن الكريم كان له وقْعٌ بالغٌ في هذا الصدد.

- صدق العاطفة، وحرارتها: وفي ذلك تعبير صُراحٌ عن الحب الخالص الذي يُكنّه الشيعةَ لآل البيت، وعن سُخطهم الحانق على خصومهم من الأمويين وغيرهم...

إن شعراء الحزب الشيعي كثيرون؛ بحيث لا يمكننا، بأي حال، الإحاطة بهم جميعاً ها هنا، ولكن أشهرهم هؤلاء الثلاثة:

- الكُمَيْت بن زيد الأسدي (ت 126هـ): وهو غزيرُ الشعر؛ بحيث بلغ مجموع أشعاره، حين مماته، تسعة وثمانين ومائتين وخمسة آلاف (5289) بيت(4). واشتهر الرجل بـ»هاشمياته»ـه، وهي قصائدُ مذهبية سياسية في الانتصار لبَني هاشم، والذَّوْد عن آراء الزيدية. وقد التجأ فيها إلى المنطق والجدل، دون الاكتفاء بالمشاعر. ويعد الكميت - في رأي أبي عثمان الجاحظ (ت 255هـ) - فاتحَ باب الحِجاج بالشعْر للشيعيّين.

- السيد الحمْيَري (ت 173هـ): وكان شيعيا كيسانياً، على الرُّغم من أن أبوَيْه كانا من الخوارج الإباضية(5). وقد اشتهر بذكر فضائل علي وآل البيت في أشعاره.

- دعْبل بن علي الخُزاعي (ت 220هـ): وكان - كما يقول ابن خلّكان (ت 681هـ) - شاعراً هَجَّاءً، بذيءَ اللسان، وُلَعَةً بتتبُّع نقائص الناس ومثالبهم، وبالحَطّ من أقدارهم(6). وقد مدح كثيراً العباسيين تقيةً وتكسباً لا غيرُ.

الزُّبَيْريون

يذهب بعض المؤرِّخين إلى أن الحزب الزبيري عرف انطلاقته الفعلية عام 63 للهجرة، حين دعا عبد الله بن الزبير لنفسه. ويرغم آخرون أنه انطلق قبل ذلك، وبالضبط في أعقاب الثورة التي قامت ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه. وكانت الحجاز مركز نشاطه، وعاصمة حُكمه. وتذكر بعض الكتابات أن أناسا كثيرين تعصّبوا، وقتذاك، لابن الزبير، ورأوا أنه أهْلٌ لقيادة المسلمين، لاسيما وأنه كان شجاعا مقداما، تقياً وَرِعاً، يُطيل الصلاة، ويُكثر الصيام؛ على حدّ قول عبد الملك بن مروان. يقول المستشرق كاترْميرْ (E. M. Quatremère) إنه لم يكن من بين العرب المتطلعين إلى الخلافة في القرن الهجري الأول، باستثناء علي، رجل، اجتمعت له الحقوق والمؤهلات، سوى شخص واحد، هو عبد الله بن الزبير.

إن عمْر الحزب الزبيري قصير جدّا إذا ما قارنّاه بالحزبين المتقدّمَيْن. ويعزى ذلك، أساساً، إلى أن هذا الحزبَ كان يواجه خصوماً عديدين، لم تكن له من القوة ما يَلزم لمواجهتهم جميعاً. لذا، كان طبيعياً أن يهزموه. ولهذه الهزيمة بُعْد سياسي عميق؛ إذ إنها «ليست هزيمة شخص أو حزب، ولكنْ هزيمة ذلك الإقليم الذي حمل لواءَ هذه النهضة مدة من الزمن» (7) . ويذكر عباس الجراري جملة من العوامل القابعة وراء فشل الحركة الزبيرية، منها :

- عدم لجوء ابن الزبير إلى الحيلة والمكيدة لاستغلال الظروف والفرَص المتاحة أحياناً.
- بُخله الشديد، في الوقت الذي كان خصومُه يُغْدقون الآلاء والعطايا والأموال لكسْب العطفَ والتأييد.

ولم يكن الرجل يبخل على غيره فقط، بل كان مقتراً على نفسه وذويه أيضا.

- سوء اختياره لعُمّاله ومُمَثليه في الأقاليم، وبخاصة في أقاليم العراق.
- اتخّاذه الحجازَ قاعدةً لحزبه ولحُكمه، وعدم خروجه إلى المناطق الأخرى.
- اعتمادُه على العنصر العربي فقط في تكوين حزبه، وإهماله المطلق للمَوالي، الذين كانوا يشكلون الأغلبية من ساكنة العراق إبّانئذ.
- قوة بني أمية في إمْرَة عبد الملك بن مروان؛ بحيث كانت تفوق بكثير قوةَ الزبيريين، لاسيما وأن هؤلاء أنْهكتهم الحروب مع الخوَارج والشيعة.

ويقوم الحزب الزبيري على مجموعة من «المبادئ»، يمكن ذكر بعضها في النقط الآتي:

- التمسك ببقاء حاضرة الخلافة الإسلامية في منطقة الحجاز.
- ضرورة استمرار الخلافة في قريْش، ومعها المُضَرية.
- مناهضة الأحزاب الأخرى، ومناصَبتُها العَداء.

فالزبيريون كانوا يحاربون الأمويين؛ لخروجهم عن نظام الشورى، وإقرارهم ولاية العهد، وتوْريثهم الخلافة، ونقلهم عاصمة الدولة الإسلامية من موطنها الأصلي (الحجاز) إلى الشام، وتقريبهم اليَمَنية، وتنكيلهم بالقرَشيّين وبالصحابة وأبنائهم. ويقاتل الزبيريون بني هاشم؛ لأنهم يرَوْن أنهم أحقُّ بالخلافة من سَوائهم. ويحاربون الخوارج؛ لأنهم يختلفون معهم في الرأي بَشأن عثمان، وطبيعة نظام الحُكم.

إن الشعر الذي واكب مسيرة الحزب الزبيري، وعبّر عن مبادئه السياسية ضَحْل، ولا يكاد يقدّم صورة شافية كافية عن هذا الحزب. ومردُّ هذه الضحالة - في المقام الأول - إلى بُخل زعيمه ابن الزبير، وعدم إغداقه المنح والعطايا على الشعراء الذين كانوا يَقْصدونهم، ولاسيما مَنْ كان مُعْدما منهم. يقول عنه ذ. عباس الجراري رحمة الله عليه: «الحق أنه لو كان كثير العطايا، لالتفّ حوله الشعراء يمْدَحونه ويدْعون لفكرته، بل إن الشعراء كانوا يقصدونه ليمدَحُوه ويأخذوا منه، ولكنهم لا يلبثون أن يكتشفوا بُخله؛ فينصرفوا عنه»(8)؛ كما هو الشأن بالنسبة إلى نابغة بني جعدة. ولعل الشاعر الوحيدَ الذي أخلص للزبيريين، وكرّس أشعاره للدفاع عن مبادئهم وعقيدتهم السياسية، هو عبيد الله بن قيس الرّقيات؛ إذ إنه مدحهم، وروّج لأفكارهم حبّا لهم، لا ارتزاقا وطمعاً، على الرُّغم من فقره ووَضاعة حاله. ولكنه - بعد انقضاء الحركة الزبيرية وانتهائها - سيتصل بالحزب الأموي، ويمدح رجالاته على سبيل التكسُّب.

ومن الصعوبة بمكان أن نتحدث عن خصائصَ مميِّزة لشعر الزبيريين، وذلك لسَببيْن اثنين على الأقلّ؛ فأما أولهما فيكْمُن في أن مبادئ حزب الزبيريين لم يُتَحْ لها التبلوُر

حتى تنعكسَ في أشعارهم، وأما ثانيهما فيتجلى في قلة شعر الزبيريين وضآلته، إلى درجة أنه يكاد ينحصر في شاعر واحد (ابن قيس الرقيات). وعليه، فإن الحديث عن خصائص الشعر الزبيري لا يعني إلا الحديث عن خصائص شعر هذا الشاعر، الذي جعل شعرَه وَقْفاً على الزبيريين طوالَ عُمر حزبهم، ومنها الآتي:

- يمتاز أسلوب ابن قيس الرقيات، في التعبير عن زُبَيْريّته، بالخَطابية والمباشرة. ويشيد فيه بابن الزبير، ويورّعه وتقْواه وصلاحه، ويقرنُه بأبي بكر وعمر وعثمان، رضوانُ الله عليهم أجمعين.
- يتعصّب للقرشيّين، ويتحمَّس لهم، ويُشْفق عليهم من الفُرْقة.
- تظهر في شعره ملامح الحزن والبكاء، ولاسيما حين يرثي أو يصوّر ما حاق بقريش في الحجاز من مِحَن وإحَن على يد بني أمية.
- يحضُر الجانب الديني، بقوة، في شعره؛ كالاقتباس من القرآن الكريم، وتواتر المفرَدات المنتمية إلى الحقل المعجمي الديني في قصائده.
- يلجأ إلى التغزُّل بأزواج الأمويين؛ لإغاظتهم واستفزازهم وهَجْوهم. وتحسُن الإشارة إلى أن تغزله هذا لم يكن فاحشا مُقذعا، وإنما كان عفيفا، لا أذيّة فيه للمتلقي. فقد كان الشاعر - كما يقول طه حسين (ت 1973م) - «يتخذ النساء وسيلة إلى حَرْب الرجال؛ فكان يحرص الحِرْصَ كلّه على ألا يؤذيهنّ أو يُذيع بينهن الفاحشة كذباً وَزُورا، بل كان يَمضي إلى أبعدَ من هذا.. كان يريد أنْ يتملق هؤلاء النساء، وأن يرضيهن عن نفسه، وأن يحبّب إليهن هذا الغزل الهجائي»(9).
- يتّصف أسلوبُه في الكتابة بالرقة، والجَزالة، والسلاسة، والبُعْد عن التمَحُّل والإغراب.
- يميل إلى استعمال البحور الشعرية الخفيفة والمجزوءة...

وفي ختام هذا المقال المُوجَز، لا بأس من أن نسجل بعض المُستخْلصات والملاحظات التي اعتنّت لنا، ونحن نتصفح كتاب د. عباس الجراري المَعنيّ بالعرْض والقراءة هنا:

- من الأكيد - إذاً - أن الشعر العربي، على عهد الأمويين، كان قويّ الارتباط بالسياسة وبالأحزاب السياسية، ولاسيما «أحزاب اليسار»، التي كانت تعارض الحُكم القائم، وتطعن فيَ شرْعيته. وكان لكل حزب شعراؤه الذين يعبّرون عن مبادئه، ويَذودون عن عقيدته السياسية، ويتصدّون لخصومه؛ بمعنى أن الشعر كان لسانَ الحزب، وبُوقَه في حالي الحرب والسلم معاً.
- خلّف شعراءُ الحزب الخوارجيّ شعراً غزيراً، ولكن ما وصلنا منه قليل جدا. ويعزى ذلك - في الأساس - إلى موقف الدولة العباسية منه، وإلى قيامها - عن قصْد - بتضْييعه وتجاهُله حين همّت بتدوين الشعر والآداب الأخرى، بدءاً من القرنين الثاني والثالث الهجريّيْن. وقد دفع العباسيين إلى هذا الصَّنيع ما كان يتضمّنه هذا الشعرُ من هجوم سافر، وتكفير واضح لكل مَنْ ليس منْ حزب الخوارج. على حين أن أكثر شعر الشيعة حَظيَ بالتدوين والحفظ؛ فوصلنا منه الشيء الكثير، وكان لمبدإ التقية، الذي أخذوا به قولاً وفعلاً، أعظمُ الأثر في هذا الإطار. ولم يبلغْنا من شعر الزبيريين إلا النزْر اليسير؛ وذلك لقصَر عُمْر حزبهم، وعدم احتفال زعمائهم (ابن الزبير خاصة) بالشعراء المتكسّبين.
- كرّس الشعراء الخوارجُ أشعارَهم كلَّها لخدمة حزبهم، والدفاع عنه. وكانوا مُخلصين، أشدّ ما يكون الإخلاص، لمبادئهم وتوجُّهاتهم السياسية والفكرية؛ فعملوا - بتفانٍ ونكران ذات - على تجسيدها وتحقيقها في الواقع العَملي. على حين أن الإخلاص والصدق كانا مُفتقديْن لدى الشيعة إلى حدٍّ مَا؛ ذلك بأنهم لم يقفوا شعْرَهم على حزبهم وَحْدَه، وكانوا شديدي التعلقّ بمَلذّات الحياة الدنيا ومُتَعها الزائلة، ولم يكونوا يخُوضون المعارك بأنفسهم، واتخذوا أشعارَهم تكأة إلى الارتزاق والاغتناء؛ أخْذاً بمبدإ التقية، الذي كان يُبيح الأخذ به أئمتُهم.
- تنطوي مبادئ الخوارج على غير قليل من التطرُّف والغلوّ، ولاسيما في قضية التكفير؛ فمنَ المعلوم أنهم كانوا يكفّرون كلّ مَن ليس من حزبهم، بل إنّ كل فرقة خوارجية كانت ترى أنها في طريق الصواب والحق، وما عداها من الفرق الخارجية الأخرى على ضلال. وبهذا، صارت كل فرقة تكفّر أختها. وفي مبادئ الشيعة وفرقها، أيضاً، غلوّ وشعْبَذة، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة.

الإحالات:

1- الأصلُ في ياء النسب، كما يقول علماء اللغة العرب، أن تلحق المفرد، لا المثنى والجمع. ولكنّا اصطنعْنا، هنا، النسبة إلى الجمع؛ درْءاً لأي لَبْس أو خلط أو فهم غير مقصود، قد يتبادر إلى ذهن القارئ لو نسبْنا الكلمة إلى المفرد. وهذا الأمر صار الآن ممّا يجوز في العربية، سيما بعد أن أقرّ مجمع اللغة العربية بالقاهرة ذلك.

2- د. عباس الجراري: في الشعر السياسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 1974، ص65.

3- البغدادي: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.1، 1973، ص20.

4- أبو الفرج الأصفهاني: كتاب الأغاني، 15/298.

5- نفسه، 7/5.

6- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، 2/34.

7- د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط.13، 1991، 1/338.

8- عباس الجراري: في الشعر السياسي، م. س، ص192.

9- طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ط.15، 1998، 1/251.

رحيق العمر.. سيرة حياة لم تكتمل !

يغادر المرء هذا العالم و»في نفسه شيء من حتى»، ومن لا يعرف هذه المقولة الأثيرة التي لا يستشعر أثر هيبتها إلا الكبار، أولئك الذين نذروا حياتهم للعلم والمعرفة وشؤون الثقافة والأدب، وها هو الأديب الباحث الدكتور عباس الجراري أحد هؤلاء الكبار، يرحل عن عالمنا ويده ما زالت تخط كلمات لم تكتمل من سيرته الذاتية «رحيق العمر: موجز سيرتي الذاتية والنشأة والمشروع « التي صدرت في جزئها الأول عام 2021، السيرة التي تم تقديمها حين الصدور بحضور المؤلف برحاب المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، بمشاركة ثلة من الأساتذة الأجلاء هم: الدكتورة نورة لغزاري والدكتور مصطفى الجوهري والدكتور محمد اليملاحي والدكتور محمد احميدة. وكان الأستاذ الدكتور عباس الجراري قد أعرب عن سعادته بهذا اللقاء العلمي وهو يستمع لقراءة الأساتذة المشاركين: «إنه مشروع قائم منذ 1930 ونحن نحتفي بالذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري .. وبمناسبة هذه الذكرى ، قمنا بنشاط ثقافي نشرنا بموجبه نحو خمسة وعشرين كتابا من مختلف التخصصات ، بشراكة مجموعة من الزملاء الأكاديميين والجامعيين ، هو عمل نرجو أن يحظى بالقبول ..» وهذا الإصدار المتميز «رحيق العمر» على حد تعبير الدكتور محمد احميدة ، يعتبر سيرة ذاتية ألح عليها كثير من المثقفين المغاربة لكي ترى النور .. فالقارئ لكتاب «رحيق العمر» سيدرك - لا محالة - أن مؤلفه استطاع أن يؤكد علاوة على محتوياته الغنية والشفافة، مرونة الكلمة العربية وقوتها في كيفية التعامل الشامل، وطواعيتها للأداء، وارتقائها بالتعبير لتعطي أحدث وأدق المعاني وأرقى وأعمق الأفكار. فهو طاقة ثابتة في التعبير الرصين . وقيمة هذا العمل، تتجلى حين نعلم أن مؤلفه يتخذ من نفسه وعواطفه ووجدانه وفكره موضوعات أدبية وفكرية يعالج بها قضايا المجتمع والأمة . ويظهر إبداعه عندما ينقل العلاج من الذات إلى موضوع المجتمع .

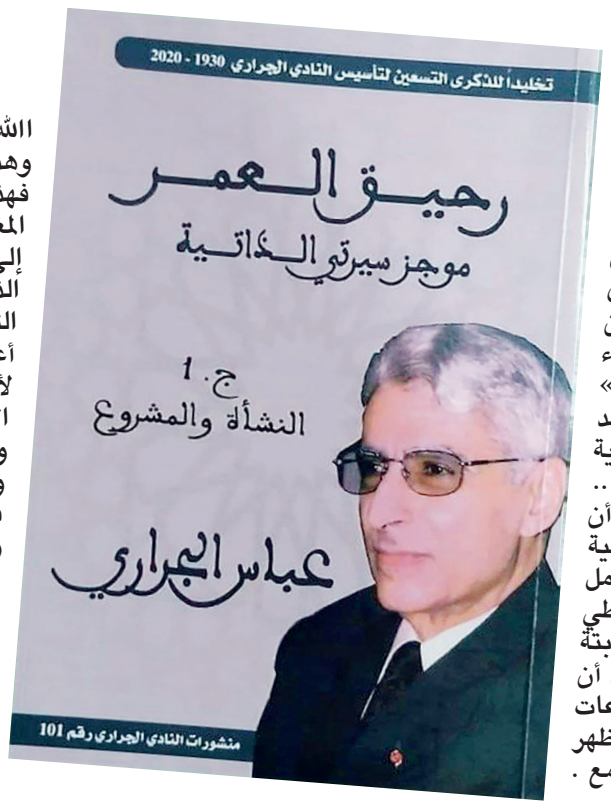

وبذلك، يرتقي المؤلف بأدبه وفكره، وهو يدون سيرته الذاتية بأصالته وبصدق حسه وقوة معلوماته الشاملة .. تلك السيرة «التي تتأسس - حسب المؤلف - على التعريف الشخصي الذي أصبح اليوم مطلبا من كل فرد، بدءا مما تتضمنه بطاقته الوطنية، إلى ما يضطر للإضافة إليها من معلومات، لمزيد من التعريف بنسبه في مشواره في الحياة . « والدكتور عباس الجراري - كما يعلم الجميع - أديب ومفكر من العيار الثقيل، يظهر سموه الأدبي عندما يتعامل بموضوعية في كتاباته، وذلك لما آتاه الله من سلامة الفطرة وصفاء الطبع وجودة السليقة. وهذا الفكر النير الصادق المخلص، أكسبه العز والمجد . فهذا الكتاب الذي يعتبر رحلة شاملة عن حياة عميد الأدب المغربي الأستاذ الدكتور عباس الجراري، يدعونا جميعا إلى الوصول إلى نتيجة إيجابية عن ذلك الرعيل الأول الذي سار على طريق الخير، فكانوا مشاعل على دروب الثقافة، واستطاعوا فعلا تحقيق حلم النجاح، فأنتجوا أعمالا جليلة لا بد أن نستفيد منها كل الفائدة، وندرسها لأبنائنا ليعرفوا قيمة وأهمية ما ينتجه أساتذتنا الأبرار الأجلاء الذين قشعوا السحب الداكنة، وقضوا على جمود وركود الحياة، فكونوا النجاح، وأصبحوا البناة الأقوياء، وخططوا لنا لنكمل المسيرة بنفس الثوابت التي وضعوها، فكانوا - كما أشرت سلفا - مشاعل الخير والنجاح . وأستاذنا الدكتور عباس الجراري أديب موفور العطاء، غزير الإنتاج، فضلا عن إبداعه الشعري الذي يعد محصولا وفيرا من حصاد التأمل والنظر الثاقب والتأسي .. فهو بحر جليل عميق يصعب سبر أغواره، وهو الموسوعة العلمية الغنية بالعطاء العلمي المتجدد، يحلق بأدبه وفكره إلى أسمى آفاق الإبداع بعطاء ثر بالغ الجودة، حافل بالمعاني لا تملك إلا الإعجاب به والتقدير له .

كأنْ ذِروةُ الفيْضِ المُنيفِ بيانُه..

شعر : مصطفى الشليح

إذا قلتُ لولا القصيدةُ تُسعفُ ... إذا انتظمَ المعنى ، ولوْ هِيَ تُنصِفُ
وإنْ أرقَ المعنى على اليدِ راجفًا ... أمنْ رجفةٍ ليلُ الكلامِ يؤلِّفُ
أمَ انّيَ أُنسيتُ الذي قرأَ المدَى ... وأبقيتُ لي تلكَ المُدَى كيفَ تُرجفُ
كأنْ تُتلفُ الدُّنيا قطافَ هناءةٍ ... ولمْ أقطفِ الدُّنيا سوى حين تَتلفُ
أم الأرضُ تهتزُّ انثناءةَ عطفةٍ ... وبي هـزَّةٌ للأرض أيَّان أعطفُ ؟

لأسئلتي خوفُ المواقفِ كلِّها ... أنا الخائفُ الأرضيُّ إنْ عزَّ موقفُ
لها تختفي كلَّما قلتُ تحتفي ... وتلفي تضادَّ العين إلا ويُخلفُ
لها تنتفي إمَّا وقفتُ ببحْرِها ... ومنْ حَيرتي تضفي عليَّ وتوقفُ
أقولُ لها؛ يا حَيرةً أبديَّةً ... إلامَ غموضُ الحاء حَيْنًا يُصنّفُ ؟
إلامَ ؟ و أدنيني. علامَ دنا أنا؟ ... وفيمَ أنا أنأى سؤاليَ يُسرفُ ؟

كأنّيَ أسرفتُ المجازَ بخفَّةٍ ... تهيَّبَها منّي الجوازُ يُسوِّفُ
أهابَ. تأمَّلْ ما حواليكَ بَغتةً ... وإنْ هيَ إلا بغتةٌ ليسَ تُخلفُ
تأمَّلتُ أسْمائي فأجهشَ عابرٌ ... لكَ الجسرُ محمولٌ بحدباءَ تعصِفُ
وأمَّلتُ لاسْمي أنْ يشدَّ على يدٍ ... من الدَّهر لا تلغو بكلِّ معنِّفُ
تناولتُ شيئًا لا يبينُ وقلتُ لي ... بقلبيَ شيءٌ خائفٌ هَمَّ يقصفُ

وإنْ بغتةً تسْري ، وتقذفُ ليلَها ... بعتمتِها حزنًا ، ولا ليلَ تقذفُ
ولكنْ تدورُ الأرضُ في غير وقتِها ... وما الأرضُ وقتٌ حيثُما الأمرُ يَخصِفُ
وحيثُ غُدافٌ فالسَّماءُ رَخيَّةٌ ... ومنْ جذبةٍ أعتَى يدالفقدِ ترهفُ
أخذنا إلينا الفقدَ أهبةَ عارفٍ ... بأنَّ مسيرًا منْ هُنالكَ يغرفُ
ونحنُ ظمئنا منذُ كنَّا بفتيةٍ ... إلى الكهفِ ، أمَّا الريُّ أوشكَ يُجحِفُ

نزلنا إلى الوادي ، وكنَّا بخلعنا ... على البدءِ معنًى يشرئبُّ فنعطفُ
كأنَّ كساءً بالعنايةِ حولنا ... أخفُّ فَراشًا للسِّعايةِ يصرفُ
ونحنُ نشدُّ الخطوَ بميْعةِ عُمرنا ... ونحنُ نمدُّ البهوَ فينا ونقطفُ
ونحنُ نعُدُّ الناهداتِ بدايةً ... نغذُّ إليها ، والنِّداءُ يُطوِّفُ
كأنَّ كِساءً حين ألقى الذي رأى ... يدُ العلمِ ريَّا ، والأساريرُ تطرفُ

غزلنا مسيلَ النائياتِ إذا رأى ... وقلنا : غزلنا الوقتَ بالآي يهتفُ
وقلنا : ونحنُ الوقتُ يندفُ ضوءَه ... ونحنُ له ضوءٌ إذا هَبَّ يندفُ
وقلنا : أتينا كيْ نكونَ إلى المدَى ... إشارتَه البيضاءَ إمَّا يُفوِّفُ
وقلنا : إذا مالَ الكلامُ كنايةً ... تركنا ثريَّاتِ الكلامِ ترصِّفُ
كأنَّ كساءً ، والبلاغةُ عِطْفُه ... بعبَّاسِه أملى ، فأيٌّ مشنِّفُ ؟

وعبَّاسُه أملى. أصختُ مهابةً
وما كانَ أملى. للبداهة شكلُها
وإنْ أولُ المعنى ترفُّ سماؤه
إلى الومض حرفُ الأرض أوله نضا

عن الغمض ما كاد الحجابُ يُحرِّفُ

كأنْ ذروةُ الفيض المُنيف بيانُه
أفاضَ شؤونًا. أيُّهذا أمالكٌ
ولا أنتَ إلا قائلٌ: يا مُفاضَةً
أنا قارئٌ سِفرًا سَفرتُ به أنا
عرفتُ يدَ الأستاذ بيضاءَ روحُها
وخِفتُ قليلا فالمعارفُ تُخلِفُ

إذا اليدُ مُجراها ذبالةُ محتدٍ

قرأتُ أنا سِفرًا تآلفَ مَخبرًا
قرأتُ كتابًا آخذًا بيمينه
وكانَ مُدلا بالرَّهافة حكمةً
تلطَّفَ حتَّى رفَّ طائرُه الذي
وأودَعَه حزمًا تدثَّرَ حِلمَه

وقيلَ: ألا اقرأْ. جبَّةٌ أبديَّةٌ
ويُلحفُ مشيًا في عزَّة لوذعيَّةٍ
كأنَّ إليه مَغربًا بتُراثه
وكدتُ إلى اليُوسيِّ أنظرُ حولَه
كأنْ قالَ لي: اِقرأ فكنتُ قصيدةً

أقولُ له: نهرٌ برقراقه جرى
وللنَّهر أطيافٌ ترنُّ بليلةٍ
يرينُ على الدنيا مراكبَ لا تنيِ
كأنَّ جبالا تحملُ الماءَ وجهةً
وقيلَ لها: بالموج آيتُه الصَّدَى

وقلتُ له: نهرُ فأسرارُه غفتْ
إذا لاقفٌ منها تأوَّبَ طينُه
ونُوديَ: يا أنتَ الذي بندائه
أمِنْ سُلَّمٍ، بالنَّهر، أخضرَ واقفٍ

وكانُوا أصاخُوا فالأمالي ترفرف
إلى أول المعنى كما النور يقذفُ
على الأرض ممشاها يخفُّ ويُسعفُ

أفاء إذا عبَّاسُه، ثَمَّ، يكشفُ

من الأمر عدًّا؟ ما إخالُكَ تعرفُ
من الجذبة الأولى، وأيَّانَ أقطفُ
إلى هذه الدُّنيا برؤيا تُعرِّفُ

وللعلم مسراها، فلا أنتَ تعزفُ

وألَّفَ فيه جوهرًا إذْ يؤلِّفُ
سحابًا مُطلا بالنَّداوة يُرهفُ
ومنْ حكمة قولُ العميد يُهفهفُ
تراءى فخفَّ الفجرُ حينَ يُلطِّفُ
كأنَّ به حُلمًا تنزَّلَ يكشفُ

مشى عالمٌ منها إليها يُصرِّفُ
كأنَّ الجراريَّ الوقارُ المُثقِّفُ
كأنِّي إذا أومأتُ أوشكتُ أكشِفُ
وكادَ مقالا منه همَّ يُنصفُ
أنا قلتُ لي: أملَى، ولستُ أصحِّفُ

وحارَ بأيِّ العُدْوتيْن يُعرِّفُ
كما جرَسٌ، والبحرُ يأرَنُ يعطف
هُنالكَ والنصرُ المؤزَّرُ مُشرفُ
وقيلَ لها كوني، فبرقٌ يُجدِّفُ
أنا بحرهُ والمغربيُّ يُثقِّفُ

وأسوارُه تروي وتغوي وتلقفُ
إلى جسدٍ إلا ندائيَ ينزفُ
عُبورُ المرايا: كيفَ دربُكَ يذرفُ؟
تمثَّلتَ أنَّ الجسرَ قبلكَ يهتفُ؟

فقالَ: «لأعلام المُعاصر» سيرةٌ
وقالَ: فضاءٌ مغربيٌّ هُويَّةً
أهلَّ بشرق وانتهَى حيثُ واردٌ
وربِّكَ إنْ شمسٌ تسيرُ فهاهُنا
تحقَّقْ فإنَّ الخَطيَّ، أعمقَ، نافذٌ
وحتَّامَ هذي المأثراتُ ذخيرةً

هنا مأرزُ الرائيات ثقافةً
فأنِّى تملَّيتَ الوجودَ فدارةٌ
وحيثُ تشاءُ العينُ إثمدَ كُحْلها
يشقُّ المَدى نصفين قلبَ مُريده
وإنْ وردَ المعنى امتدادًا عَميدُه

إذا استدركَ اليُوسيُّ إثْرَ مقالة
وحدَّقَ في مَعنايَ مثلَ استعارةٍ
وحلَّقَ في دُنيايَ منذُ يفاعةً
وأطرقَ يستفتي مُحيَّايَ سُؤلَه
ترفَّقَ بي مُنقالُه شُرفةً: فكنْ

فيا مجلسًا لمَّا يزلْ متأنِّقًا
ذلاقتُه رَوْحٌ وريحانُ أهبةٍ

ويقطفُ منها ناظرٌ قبلَ سَمعه
وإنَّ مُحبًّا مُشرئبًّا بعُمره
كأنَّ حريرًا للفراشةِ مهدُه

فيا مجلسًا عبَّاسُه مُتبسِّمٌ
يدُ البذل إنْ ممدودةً فسماحةٌ
وإنْ عرفتْ أنْ بيتُه بكرامةٍ

ومنْ باذخ بالمعلوات وراسخ

كأنَّ على ماءِ مساريَ يبتدي
تركتُ انتباهَ الوقتِ يحدُو سُؤالَه

أقولُ له إلا المسافةُ بيننا:

إلى العُدوتين الضَّرَّتين تؤلِّفُ.

تماهَى، ولكنْ إذ تناهَى فموقفُ
من الكلمة الأولى يَحُفُّ ويحلفُ
بلاغتُها إمَّا النسيجُ المُفوَّفُ
إذا سُئلَ المخطوطُ حتَّامَ يكشفُ
وآثارُها تأتي النبوغَ وتصرفُ؟

تمدُّ جناحيها بظلٍّ يرفرفُ
إلى العلم ضمَّته وجودًا يُطوِّفُ
بعرفانه كانَ المَدَى المُتصوِّفُ
إذا اتَّقدَ المعنى زوايا تثقَّفُ
أشرتُ إلى اليوسيِّ: ما الحرفُ يصدفُ؟

توكأ حتَّى إنَّ بالماء تلقفُ
تناولني رُؤياي لولاكَ يَحذفُ
ظمئتُ بها ريًّا، وما كنتُ أعرفُ
ولا قولَ لي إلا بعيْنيَ أطرفُ
إلى مجلس عبَّاسُه مُتصرِّفُ

صدارتُه الأستاذُ باليُمن يُشرفُ
إلى لحظةٍ عليا تُطيفُ وتُسعفُ

فإنَّ عيونَ القلب للسَّمْع تقطفُ
إلى عُمره أخْذَ الحديث يُطوِّفُ
أمِنْ أثرٍ؟ هذا تليدٌ ومُطرفُ

وعاداتُه في لقية مُتعَطِّفُ
وإنْ هيَ بسطٌ فالفضائلُ تغرفُ
فمنْ كرمةٍ وظفاءَ، والعينُ تطرفُ

ولا جبلٌ إلا عمادُكَ يُشرفُ

إذا أغتدي، والروحُ منكَ تهتفُ:
عن السِّفر ضوئيًّا كأنِّي المُؤلِّفُ

أنا لمْ أصدِّقْ ناعيًا. كيفَ أعرفُ؟

أحلام المسفر
عَلى ضفاف الأوقيانوس

بنيونس عميروش

تفصح قماشات أحلام المسفر عن مساحاتها الشاسعة كإلزامية بَدَهيَّة. لطالما ارتبطت أعمالها بالمقاسات الكبَيرة التي تمنح فسحتها لاستيعاب الجسد بكامله، بحيث ينبع جوهر الفعل التشكيلي من الحيوية الكامنة في طاقة الجسد، بارتعاشه وسكناته، بإيقاعه الموزون عبر حركة اليد والذراع. هناك باستمرار ذلك التماهي الواعي مع مفاهيم الحيِّز والفضاء والفضائية **Spatialité**، بقدر كبير وفير من التوازن والدقة، والشعرية أيضا.

كثيرا ما تَمَثَّلتُ أعمال أحلام المسفر باعتبارها مشاهد طبيعية **Paysages**، بالرغم من كونها تجريدية صرفة، كما هي في أعمالها السابقة، حيث تتجمَّع التلوينات الأفقية في الأسفل لتَفْتَح ألقها على الأفق والمدى. ذلك أن ضربات الأسود والأحمر والأخضر والأزرق، مع فجوات الأبيض الرفيعة والبرّاقة، هي اختزال لجمال الطبيعة ورونقها، وما تُحْدثُه من تفاعلات بصرية مع الفراغ الغائم في الأعلى. فلَا تكون تلك اللمسات المتجاورة والمتراكبة، إلا ممدودة تمثيلا للبَسيطة، حيث يتحاور المملوء والفارغ تبعا لترابط الأرض والفضاء الأبدي.

في هذه المجموعة الجديدة («أزرق» **bleu**، قاعة دولاكروا بطنجة، يناير/ كانون الثاني- مارس/ آذار، **2024**)، يأتي «الأزرق» لتتحول معه التراكيب من الأفقي إلى العمودي، بينما يبقى الهاجس الفضائي قطب الرحى في الاشتغال بالضوء، وعلى الضوء، وذلك ما يُشْرك بين السابق والآني من الأعمال، حيث تَرْتيب الطبقات (اللونية) يخضع لمعْيار الشفافية والتنوير، لإعْمال الدَّفْع بالمُتواري والعَميق إلى السطح، حيث اللون الأحادي **Le monochrome** يحمل التعدد في حد ذاته، بينما اللعب على درجات النور الدقيقة، هو ما يحكم القيمة الضوئية المسيطرة في الأخير. لا مجال هنا للصدفة والتلقائية؛ الكل محسوب قبل إجراء التنفيذ، منذ التهيئة الأولية للقماشة العذراء ! لا يتعلق الأمر بسعة البياض فقط، بقدر ما يرتبط بتدخل مادي، لاستنبات درجات من النتوء الموصول بالحَفْر والتَّقْعير والتَّجْويف، بمَراتب طفيفة لا تؤثر على طبيعة السند المسطح الذي لا يَغدو مسطحا في نهاية المطاف، وذلك ما يستدعي التفاعل المَلمَسي لدى المتلقي في أحايين كثيرة، في الحال الذي نكون فيه أمام المَصبوغ المنحوت. وفي مقابل ذلك، تعمل الفنانة على خلق تَمَفْصلات عبر شرائط خطية بيضاء، لتخطي الرَّتابة **Monotonie** وإحداث دينامية في أرجاءَ اللوحة من جهة، وخلق مُبادلات واقْتِسامات بين العناصر والمساحات من جهة أخرى.

إن الأزرق، في تباييناته وانعكاساته الضوئية، يُكَرِّس ثَباته دون إلغاء نسبة من الدينامية المَوْزونة، أرادتها أحلام المسفر مُتَباينة ومُحْكَمة؛ ففي تراكب المستويات والأبعاد **Les plans**، يُغَلف الأزرق مساحة الأبيض وفق التَّراكُب المزدوج للمربع لخلق تَنْغيم بوليفوني، موصول بغَلَبَة الأزرق الذي يُشيع وفرته الرصينة عبر مربعات ومستطيلات، إذ يتماهى الأزرق مع أشكاله البسيطة التي تتمظهر كمسطحات، بينما هي غير ذلك بما تحتويه من عمق وظلال ومسافات وتدرجات ضوئية في غاية الدقة. إلى جانب الأبيض، وأسود الخلفية، ينبثق الأحمر، هنا وهناك، في مواقع بعينها، من خلال أشكال عضوية مُنْصاعَة لقانون الجاذبية، فيما تحيل على الجسد، ومن ثمة على الكائن الإنساني الذي يَتَمَوْضَع، رمزيا ها هنا، في غمرة البرودة والسكينة، وفي اللانهائي الذي يلتهمنا، حيث تنتعش الروح وتتضاعف حماسة الحسّ وينفرج الخيالَ في استحضار فسحة الماء، وفسحة الأوقيانوس، وفسحة السماء الضاربة في الأعالي.

في حين، تستوقفنا لوحات أخرى تقوم على المونوكروم بدورها، كتلك المتعلقة بالرمادي وما تتضمنه من تفضيَّة ضوئية، وتناغمها مع آثار السكين في تسوية الطَبَقة المادية التي تضفي حيوية على تزحلق السَّحاب. وتلك المُظْلمَة؛ لوحات الحُلكة، ضمن اشتغالها المتأني حول السوَاد الموصول بقدر من النحت المادي الخَفيض، الذي تَتَخَلله خدود وشبه علامات (غرافيزم) محفورة لخلق درجات حية من الظلال التي تنعكس بحسبان وفق طبيعة الأجواء والإنارة، كأن ذلك يروم صنع الضوء من الظلمة ذاتها. ومن ثمة، تؤلف سلسلة الأعمال متوالية ضوئية، من النهار إلى الليل، بحسب فُروق ضئيلة ينتصر فيها الأزرق في كُمْدته وسُطوعِه، وفي عُرْيِه وسرائره.

هكذا، تبرهن أحلام المسفر، مرة أخرى، عن إصرارها على التقدم الحثيث في بحثها التشكيلي، وتجويد أسلوبها الموصوف بدرجات قصوى في الاختزال، وفي البساطة التي تكتنز حساسية فائقة في التركيب ومُعالجة اللون وتَنْقيته. ومن خلال هذا الصفاء الباذخ، تلقي بنا في بحر الزُّرْقَة لنستعيد طاقة التامل وسؤال الوجود، فيما تضعنا داخل مُتَفَرِّقات اللون الأكثر شعبية، واستذكار التاريخي والمحلي في طبيعته، من أزرق اللازَوَرْد مرورا بأزرق الكوبالت، إلى الأزرق النيلي المنبثق من تربتنا. وبعيدا عن جَبْريَّة الموضوع، تضعنا الفنانة أمام إمكانية إخضاع الفكر والتأمل للعين، في اتجاه تبني حساسية معاصرة واعية، دون تجاوز السَّنَد المُسَطَّح الذي يستوعب تصوير المُطلق واللامُتناهي.

الرباط ، يناير/ كانون الثاني 2024